مفاهيم يجب أن تصحح

جمع وترتيب

الدكتور / سعـد خليـفـة

حقوق الطبع والنشر محفوظه
لدار الأديب للنشر والتوزيع

اسم الـدار	دار الأديب للنشر والتوزيع
اسم الكتاب	مفاهيم يجب أن تصحح
اسم المؤلف	د / ســعد خليفـــة
رقم الإيــداع	٢٢٢٧٧ / ٢٠١٨
الإخراج الفني	لدار الأديب (نجلاء زغلول)
الغـلاف	من تصميمات الدار

إهـــداء

إلى والديَ اللذين عمني فضلهما حتى اللجم .... أسأل الله الرحمن الرحيم أن يعمهما بواسع رحمته.

و أن يجعل مستقرهما الفردوس الأعلى مع الذي أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا

إلى أساتذتي الفضلاء الذين تعلمت من أخلاقهم وسلوكهم قبل علمهم وفكرهم

إلى رفاق الدرب الذين تعلمت منهم كيف تكون الاخوة واقعا يمشي على الأرض .

إلى زوجتى صاحبة القلب النقي . و الفكر السني . و القلب القنوع الرضي التي تدعمني بكل ما تملك من قوة مبعثها حبها لمنهج الله ، وحبها للحق و لأهل الحق .

إلى أولادي ثمرة فؤادي أسأل الله أن يصنعهم على عينه و أن يجعلهم مباركين أينما كانوا.

إلى كل المربين و المعلمين في مختلف المحاضن التربوية .

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا الكتاب

سائلا الله عز وجل أن يتقبله عملا صالحا خالصا لوجهه الكريم ، وان ينفع به الإسلام و المسلمين

[و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب]

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}

(سورة آل عمران/ الآية :١٠٢)

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}

(سورة النساء/ الآية :١)

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ }

(سورة الأحزاب/ الآيتان :٧٠ - ٧١)

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله- عز وجل- وخير الهدي هدي محمد - صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار (١)

(١) أخرجه مسلم (١١/٣) والنسائي (٢٣٤/١) والبيهقى (٢١٤/٣) وأحمد (٣١٩/٣و ٣٧١)

كثيرة هى الانحرافات التى أصابت الأمة الإسلامية حتى صارت المفاهيم الصحيحة شيئا عجابا ، وباتت كما أخبر النبى – صلى الله عليه وسلم – :

(بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء . (٢)

أصبحت المفاهيم الإسلامية شيئا غريبا ، وأصابها الانحراف الذى خرج بها عن مدلولاتها التى كانت عند المسلمين الأوائل : يقول الأستاذ محمد قطب – حفظه الله – :إن كثيرا من الدعاة المخلصين أنفسهم ليظنون أن ما أصاب المسلمين قد أصابهم بسبب انحراف سلوكهم عن الصورة الإسلامية الصحيحة ، وانحراف المسلمين فى سلوكهم أمر أوضح من أن يشار إليه ؛ فإن ما تفشى فى حياتهم من الكذب والغش والنفاق والضعف والجبن والاستخذاء والبدع والمعاصي ، وما صار إليه الشباب من تفلت وتحلل ، وما صار الناس إليه من تبلد على الفجور والمنكر ، وعشرات غيرها من الصفات والأعمال كلها ليست من الإسلام فى شئ بينما هى الواقع الذى يعيشه المسلمون !

ومع ذلك فليس الانحراف السلوكي هو الانحراف الوحيد فى حياة المسلمين ولا هو الانحراف الأخطر فى حياتهم ،ولو كان الأمر مقصورا على الانحراف السلوكي وحده لكان الأمر – على سوئه – أهون بكثير ، ولكن الأمر تجاوز ذلك إلى الانحراف فى المفاهيم .. كل مفاهيم الإسلام الرئيسة ابتداء من لا إله إلا الله !

(٢) (صحيح) مسلم (كتاب) الإيمان (باب) بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا – ج١– ص١٢٦– برقم ١٤٥.

وحين تجد إنسانا منحرفا فى سلوكه ولكن تصوره لحقيقة الدين صحيح فستبذل جهدا ما لرده عن انحرافه السلوكي ، ولكنك لا تحتاج أن تبذل جهدا فى تصحيح مفاهيمه ؛ لأنها صحيحة عنده وان كان سلوكه منحرفا عنها ، أما حين يقع الانحراف فى المفاهيم ذاتها فكم تحتاج من الجهد لتصحيح المفاهيم أولا ، ثم تصحيح السلوك بعد ذلك ؟

تلك هى حقيقة الوضع فى العالم الإسلامى اليوم .

تجاوز الانحراف منطقة السلوك ووصل إلى المفاهيم الرئيسة لهذا الدين ؛ ومن أجل ذلك يعانى الإسلام اليوم تلك الغربة التى تحدث عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (٣)

و ثمة مفاهيم كثيرة حاق بها داء الانحراف حتي أخرجها ، أو كاد أن يخرجها تماما من معناها الرئيس الذي جاء به الإسلام ؛ حتى أضحت فتنة استغلها اعداء الله ليطعنوا في هذا الدين بغية تقويض أركانه الراسخة التي قام عليها صرحة الشامخ ، ومن تلك المفاهيم :

- مفهوم كلمة التوحيد
- مفهوم العبادة التي باتت في حس الكثيرين جملة من الشعائر التعبدية لا تعدو ذلك قيد أنملة
- مفهوم الإيمان الذي بات مجرد المعرفة و التصديق أو الإقرار.
- مفهوم الدين الذي تم اختزاله في معنى الديانة لا يتجاوز ذلك ليكون سلوكا حيا في حيا الناس .

(٣) مفاهيم ينبغى أن تصحح / محمد قطب ص١١– ١٣ – دار الشروق ط٩– ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م

- مفهوم التوكل الذي جعلوه تواكلا ، وجعله البعض الآخر الأخذ بالأسباب واعتمدت قلوبهم على ذلك .

- و مفهوم التوسل الذي انحرف البعض في فهمه فتوسلوا بما لم يشرعه و الله و لم ينزل به سلطانا فرأينا من يتوسل بجاه النبي – صلى الله عليه وسلم – و من يتوسل بآثاره .

- و مفهوم الإيمان بالقضاء و القدر حيث وجدنا من المسلمين من يحتج بالقضاء و القدر عللى انحرافاته و شهواته فيفع الكبيرة ويقول : قضاء و قدر ، و لولا أن الله قدر ذلك على ما فعلته .

- الانحراف في محبة النبي – صلى الله عليه وسلم – و باله من انحراف بلغ المدى حتى رأينا من أمتنا من يؤلهه فيدعوه ويرجوه فلا حول و لا قوة إلا بالله .

وقد قسمت هذا الكتاب إلى ثمانية مباحث هي :

المبحث الأول: القصور في فهم كلمة التوحيد ومن الأخطاء الشائعة في فهمها : –

اعتقاد أن النطق بالكلمة وحدها يكفى دون العمل بمقتضياتها .

المبحث الثاني: القصور في مفهوم العبادة ومن صوره : –

المبحث الثالث: القصور في مفهوم الإيمان ومن صور ذلك : –

١. الاعتقاد أن الإيمان يعنى المعرفة أو التصديق فقط
٢. الاعتقاد أن الإيمان يعنى الإقرار فقط

المبحث الرابع: القصور في مفهوم الدين ومن صوره :

١- اختزال الدين في معنى الديانة

المبحث الخامس: القصور والخطأ في مفهوم التوكل ومن صوره :

١- ترك الأخذ بالأسباب .

٢- التوكل على الأسباب وحدها

٣- ترك علو الهمة في التوكل

المبحث السادس: القصور والخطأ في مفهوم التوسل ومن صوره:

١- التوسل بجاه الأنبياء والأولياء والصالحين .

٢- الاستعانة بغير الله من الأولياء والصالحين .

المبحث السابع: الانحراف والقصور في مفهوم الإيمان بالقضاء والقدر :

ومن صوره :-

١- الاحتجاج بالقدر على المصائب والاستسلام للواقع السيئ بحجة القضاء والقدر.

٢- ترك الأسباب بحجة القضاء والقدر

٣- الاعتقاد أن الإيمان يعنى المعرفة أو التصديق فقط

المبحث الثامن :

الانحراف فى مفهوم محبة النبي – صلى الله عليه وسلم – ومن صوره :

١. الانحراف فى تصور الحقيقة المحمدية .

٢. الغلو فى الإطراء والمدح .

المبحث الأول

الانحراف في فهم كلمة التوحيد

و مما أصاب فهمها من انحراف :

١ - *اعتقاد أن النطق بالكلمة وحدها يكفى دون العمل بمقتضياتها :*

إن القرآن الكريم يركز كثيرا على قضية التوحيد ؛ ومن ثم فإن القارئ للقرآن لا يجد الحديث عن التوحيد مقصورا على السور المكية وحدها ، بل نجد ذلك كذلك فى القرآن المدني ، نجد أن قضية التوحيد ليست قضية ينتقل منها القرآن إلى غيرها ، بل ينتقل معها إلى غيرها ، و نجد حديث القرآن عن كلمة التوحيد حديثا دائما لا ينقطع فى وقت من الأوقات حتى إنك لتجد القرآن الكريم يبدأ توجيهاته وتنظيماته المختلفة بالدعوة إلى التوحيد وإلى عبادة الله – وحده – وذلك كثير فى القرآن الكريم ، ومنه على سبيل المثال قول الله – عز وجل – :

{ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا }

(سورة النساء/ الآية :٣٦)

وانك لتجد القرآن كذلك يدعو إلي كلمة التوحيد لا الكفار وحدهم ، بل ويدعو إليها المؤمنين بها كذلك

ويدل على ذلك قول الله – تبارك وتعالى – :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً } **(سورة النساء/ الآية : ١٣٦)**

والتوكيد يلفت النظر ولا شك ؛ فهؤلاء الذين يطلب إليهم أن يؤمنوا هم مؤمنون بالفعل بنص النداء الذى يوجه إليهم ، ولو كان الكلام : يا أيها الذين كفروا آمنوا .. أويا أهل الكتاب آمنوا لما كان فى التعبير ما يلفت النظر ؛ فهم قوم غير مؤمنين يدعون إلى الإيمان ، أما أن يدعى المؤمنون بالفعل ليؤمنوا فشئ يلفت النظر بكل تأكيد !

إن المطلوب بلا شك ليس تحصيل حاصل لما هو كائن بالفعل ، إنما المطلوب هو التمسك بهذا الإيمان القائم فى النفوس والاستزادة منه ، والعمل على تنميته على الدوام ؛ لكي لا ينقص ولا يتأرجح . (٤)

- إن كلمة التوحيد هى الكلمة الباقية ، وهى العروة الوثقى ، إنها الدين كله . " لا إله إلا الله " أي لا معبود بحق إلا الله .
- إنها تعنى أن تكون العبادة لله – وحده – لا يصح أن يصرف نوع من أنواعها لغير الله .
- إنها كلمة لها مقتضياتها ، وكل أعمال الإسلام الظاهرة والباطنة من هذه المقتضيات : الصلاة والزكاة والحج والصوم والجهاد والبر والأخلاق والتشريعات والتنظيمات المختلفة كلها من مقتضيات كلمة التوحيد ، أما

(٤) دراسات قرآنية / محمد قطب – ص ٤٩٩.

الذين يزعمون أن النطق بالكلمة وحدها يكفى الإنسان ليكون مسلما فواهمون وبدينهم جاهلون .

- إن " لا إله إلا الله " تعنى أن الله – سبحانه – هو الخالق وحده ، وهو الرازق وحده ، وهو المدبر وحده ، وهو المهيمن وحده ، وهو القيوم وحده ؛ وهذا يقتضى أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ، وهذا حق الله على عباده .

ولو كانت الكلمة وحدها تكفى فلماذا كان موقف أعداء الرسل منها على هذا النحو؟

هل كان يعجزهم النطق بالكلمة ؟

هل كان أبو طالب عاجزا عن النطق بالكلمة والرسول – صلى الله عليه وسلم – يدعوه لينطق بها قبل الموت ليشفع له ؟

ولماذا تعجب الكفار من دعوتهم إليها ؟

كما قال ربنا – عز وجل – :**{وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب{٤} أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب{٥} وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد{٦} ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق{٧}** (سورة ص/ الآيات من :٤-٧)

إنهم رفضوا النطق بالكلمة لأنهم فهموا أن للكلمة مقتضياتها ، وأنها تعنى أن تكون حياتهم كلها تبعا لهذه الكلمة ، فلا حركة ولا سكون إلا فى إطارها .

و رفضوا النطق بالكلمة لأنهم فهموا أن الكلمة تقضى عل زعاماتهم الباطلة ؛ فالكل سواء لا فرق بين سيد ومسود ، ولا بين غنى وفقير ، ولا بين أبيض و أسود ، ولا بين عربي وعجمي إلا بمقدار الالتزام بهذا الدين .

- والكلمة تعنى أن يكون التلقي عن الله – وحده – فكما أن له الخلق فإن له الأمر ، وتأمل قوله – تعالى – :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً{٦٥}

(سورة النساء / الآيات من :٦٠- ٦٥)

- فلا إيمان إلا بتحكيمه فيما شجر بيننا عن رضا وتسليم مع سلامة الصدر من الحر.

- وتعنى كلمة التوحيد كذلك التخلي عن كل معبوداتهم الباطلة أيا كانت هذه المعبودات : التخلي عن الإيمان بها ، واللجوء إليه ، والاستعانة والاستغاثة بها .
- ليست كلمة التوحيد مجرد كلمة تقال ، ولو كانت مجرد كلمة تنطق باللسان لكان المنافقون فى صف أهل الإيمان ؛ فهم لا يفتأون يرددون الكلمة ليل نهار .

يقول الأستاذ سفر الحوالى :

و الشئ المثير أن موضوع هذه المعركة العنيفة الطويلة لم يكن سوى كلمة واحدة هى كلمة" لا إله إلا الله " كلمة يصر عليها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أقصى حدود الإصرار وترفضها الجاهلية العربية إلى أبعد مدى الانكار ، يرفضونها عن علم ويقين بأن لها معنى عظيما ، ومدلولا خطرا ، وأنها تستتبع مسئوليات جسيمة ، وتكاليف ثقيلة

منذ اللحظة الأولى حين دعاهم النبى – صلى الله عليه وسلم –إلى " لا إله إلا الله "

كان الجواب الفوري :{ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }

فالقضية واضحة فى أذهانهم :

إن الالتزام بهذه الكلمة معناه الرفض الجازم والتخلي الكامل عن كل ما عدا الله من معبوداتهم وطواغيتهم المختلفة : طاغوت الأوثان وطاغوت الزعامة وطاغوت القبيلة ، وطاغوت الكهانة ، وطاغوت التقاليد ... الخ

والاستسلام الكامل لله ورد الأمر كله – جليله وحقيره وكبيره وصغيره – إلى الله – تعالى – وحده لا شريك له ، وهذا موقف واحد من مواقف الصراع حول هذه الكلمة :

لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فوجد عنده أبا جهل عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– :

يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله .

فقال أبو جهل و عبدالله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبدا لمطلب ، وأبي أن يقول لا إله إلا الله .... (٥)

أرأيت ؟ ! رجل فى ساعة الاحتضار الأخيرة يراد منه أن يقول هذه الكلمة – الخفيفة على اللسان – فما الذى يجعل طواغيت قريش تتشبث بهذا الإصرار المستميت على ألا يقولها ؟

---

(٥) صحيح مسلم (كتاب) الإيمان (باب) الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع فى النزع – ج١– ص ٥٤– برقم ٢٤

وما الذى يجعل هذا الرجل يلفظ أنفاسه دون أن ينطقها ؟

لو كانت المسألة مسألة لفظ باللسان لما حدث شئ من هذا أبدا ...

ولكنه المعنى الخطير والمغزى العميق الذى أدركه هؤلاء المشركون ، وغفل عنه أكثر المسلمين فى العصور الأخيرة . (٦)

وعن المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد يقول ربنا – سبحانه وتعالى – :

{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

(سورة البقرة /الآية : ٢٥٦)

فالآية تدل على أنه لابد لكلمة التوحيد من أمرين :

<u>الأول</u> : <u>الكفر بالطاغوت</u>

قال ابن القيم – رحمه الله – :

والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله ، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن التحاكم إلى الله وللى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته ،

---

(٦) العلمانية / سفر بن عبد الرحمن الحوالى ص٦٧٢- ٦٧٤ مكتب الطيب – القاهرة – ط٢-١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م

وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة : وهم الصحابة ومن تبعهم ، ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معا (٧)

وعلى هذا فالطاغوت كلمة عامة تعنى كل ما يضاد " لا إله إلا الله "

ولابد من الكفر بالطاغوت أولا ؛ لأن القلب لا يمكن أن يقبل الأيمان ما لم يكن خاليا من

ضده ، فهى كما يقال : تخلية تعقبها تحلية .

تخلية القلب من الشوائب أولا ، ثم تحليته بالإيمان ثانيا .

ثانيا : الإيمان بالله وهو لا يتم إلا بعد الكفر بالطاغوت .

وتأمل قول النبى – صلى الله عليه وسلم – : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله . (٨)

وقد استند الصديق أبو بكر – رضى الله عنه – على هذا الحديث فى قتاله لمانعي الزكاة ، واستشهد به على جواز قتالهم لما اعترض الفاروق عمر على قتالهم بحجة أنهم يقولون ك " لا إله إلا الله "

---

(٧) إعلام الموقعين / ابن القيم – ج١– ص ٥٠ .

(٨) (صحيح) البخارى (كتاب) الإيمان (باب) " فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم " ج١– ص ١٧– برقم ٢٥ – ومسلم (كتاب) الإيمان (باب)الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله – ج١– ص ٥٢– برقم ٢١.

وفى الحديث دليل على أن النطق بالكلمة وحده لا يكفى حتى يأتوا بحق الإسلام وأعماله التى منها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما ورد فى الحديث على سبيل المثال .

- وحين يستقر ذلك المعنى الصحيح لكلمة التوحيد فى حس المسلمين كما كان مستقرا من قبل فى حس الصحابة والتابعين ومن لحقهم بإحسان ، حين نتلقى عن الله ولا نعبد إلا إياه سنولد من جديد كما ولدت الأمة على يد النبى - صلى الله عليه وسلم - من جديد ، وحينها فقط سنرتفع بهذه الكلمة العظيمة الكبيرة ، وستكون لحياتنا قيمة وهدف بعد أن غدت شيئا مملا متعبا تافها رتيبا ، وسنرتفع من مصالح الأرض القريبة ومجالس اللهو والترف إلى الحياة من أجل الإسلام وعقيدته الغراء الصافية التى يتوجب علينا أن نعطيها فكرنا ومشاعرنا وجهدنا وكل عزيز نملكه ، وأن نتحمل فى سبيلها الأذى والحرمان .

والخلاصة .....

أن " لا إله إلا الله" لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيا واثباتا ، واعتقد ذلك وقبله وعمل به ، وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل فهذا جهل صرف وهى حجة عليه بلا ريب .

وقال شيخ الإسلام : الإله هو المعبود المطاع فإن الإله هو المألوه والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع

قال : فإن الإله هو المحبوب المعبود الذى تألهه القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليه فى شدائدها، وتدعوه فى مهماتها ، وتتوكل عليه فى مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا لله وحده ؛ ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق ، واذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له فى علومه وأعماله.

وقال ابن القيم : (الإله) هو الذى تألهه القلوب محبة واجلالا وانابة واكراما وتعظيما وذلا وخضوعا وخوفا ورجاء وتوكلا .

وقال ابن رجب : (الإله) هو الذى يطاع فلا يعصى هيبة له واجلالا ومحبة وخوفا ورجاء وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاء له ، ولا يصلح هذا كله إلا لله – عز وجل– فمن أشرك مخلوقا فى شئ من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحا في إخلاصه فى قول (لا إله إلا الله) ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك .

وقال البقاعي : " لا إله إلا الله" أي انتفاء عظيما أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم؛ فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ، ولنما يكون علما إذا كان نافعا، ولنما يكون نافعا إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، والا فهو جهل صرف .

وقال الطيبي : (الإله) فعال بمعنى مفعول كالكتاب بمعنى المكتوب من أله إلاهة أي : عبد عبادة .

فدلت (لا إله إلا الله) على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله – تعالى– كائنا ما كان واثبات الإلهية لله – وحده – دون كل ما سواه ، و هذا هو التوحيد الذى دعت إليه الرسل ، ودل عليه القرآن من أوله إلى أخره ، كما قال تعالى عن الجن: **{ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً{١} يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً{٢}(سورة الجن/١-٢)** (٩)

والقرآن الكريم يربط بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياتها فى الضمير وفى الحياة ربطا وثيقا ، ويرتب على وحدانية الألوهية والربوبية ووحدانية الفاعلية والسلطان فى هذا الوجود كل ما يكلفه المسلم ، سواء ما يكلفه من شعور فى الضمير ، أو ما يكلفه من شعائر فى العبادة ، أو ما يكلفه من التزام فى الشريعة ، وفى السياق الواحد يرد ذكر التوحيد ، وآثار الفاعلية والسلطان فى الكون ، وفى الحياة الدنيا والآخرة ، ويكرر معها الأمر باتباع شريعة الله ، باعتباره مقتضى توحيد الألوهية والسلطان

(١) انظر فتح المجيد / عبد الرحمن حسن آل الشيخ – ص ٣٨-٤٠

يقول سبحانه وتعالى :

{وإلـهكم إلـهٌ واحدٌ لا إلـهَ إلاَّ هوَ الرَّحمنُ الرَّحيمُ{١٦٣}إنَّ في خَلْقِ السَّماوات والأَرض واخْتلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ والْفُلْكِ الَّتي تجري في الْبحرِ بما ينفعُ النَّاس وما أَنزلَ اللّهُ من السَّماءِ من مَّاءٍ فَأَحيا به الأرضَ بعدَ موتها وبثَّ فيها من كلِّ دآبَّةٍ وتصريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ الْمسخَّرِ بين السَّماءِ والأَرضِ لآياتٍ لِّقومٍ يعقلُون{١٦٤} ومن النَّاسِ من يتَّخذُ من دون اللّهِ أنداداً يحبُّونهم كحبِّ اللّهِ والَّذين آمنُواْ أَشدُّ حباً لِّلّهِ ولو يرى الَّذين ظلموا إذْ يرون الْعذابَ أَنَّ الْقوَّةَ للّهِ جميعاً وأَنَّ اللّهَ شديدُ الْعذابِ{١٦٥} إذْ تبرَّأَ الَّذين اتُّبِعوا من الَّذين اتَّبعوا ورأَوا الْعذابَ وتقطَّعتْ بهمُ الأَسبابُ{١٦٦} وقالَ الَّذين اتَّبعوا لو أَنَّ لنا كرَّةً فنتبرَّأَ منهم كما تبرَّؤُواْ منَّا كذلك يريهمُ اللّهُ أَعمالَهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النَّارِ{١٦٧} يا أَيُّها النَّاسُ كلُواْ ممَّا في الأَرضِ حلالاً طيِّباً ولا تتَّبعواْ خطُواتِ الشَّيطانِ إنَّه لكم عدوٌّ مُّبينٌ{١٦٨} إنَّما يأْمركم بالسُّوءِ والْفحشاءِ وأَن تقولُواْ على اللّهِ ما لا تعلمون{١٦٩}وإذا قيلَ لهمُ اتَّبعوا ما أَنزلَ اللّهُ قالُواْ بل نتَّبعُ ما أَلْفينا عليه آباءنا أَولو كان آباؤهم لا يعقلُون شيئاً ولا يهتدون{١٧٠} ومثلُ الَّذين كفرواْ كمثلِ الَّذي ينعقُ بما لا يسمعُ إلاَّ دعاءً ونداءً صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلُون{١٧١} يا أَيُّها الَّذين آمنُواْ كلُواْ من طيِّباتِ ما رزقْناكم واشكرواْ للّهِ إن كنتم إيَّاه تعبدون{١٧٢} إنَّما حرَّم عليكمُ الْميتةَ والدَّمَ ولحمَ الْخنزيرِ وما أُهلَّ به لغيرِ اللّهِ فمنِ اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثْمَ عليه إنَّ اللّهَ غفورٌ رَّحيمٌ{١٧٣}   (البقرة / :١٦٣- ١٧٣

وبالتأمل فى هذا السياق القرآني نجد أنه بدأ بتقرير وحدانية الله ، ووحدة الألوهية ، ثم أتبع هذا التقرير بعرض المشاهد الكونية التى تتجلى فيها القدرة الإلهية ، ثم أعقبها بعرض مشاهد القيامة التى يتجلى فيها السلطان الذى لا سلطان غيره ، فلما انتهى من ذلك كله أمر الناس باتباع شريعة الله فى التحليل والتحريم ، ونهاهم عن اتباع الشيطان ، وندد بمن يتلقون فى هذا الشأن عن عرف الجاهلية ، حيث لا يجوز التلقي فيه إلا من الله ، ثم أمر الذين آمنوا أن يأكلوا من الطيبات التى شرع الله حلها إن كانوا يعبدون الله – وحده – وبين لهم ما شرع لهم حرمته ؛ لأنه هو – وحده – الذى يحلل ويحرم كما أنه هو – وحده الذى يعبد ، وهو – وحده – الذى يصرف هذا الكون ، وهو – وحده – صاحب السلطان يوم القيامة ، وتوحيده – سبحانه – لا يتم حتى يتجلى فى الشعائر وفى الشرائع وفى الدينونة سواء . (١٠)

(١٠) خصائص التصور الإسلامي / سيد قطب – ص ١٩١-١٩٢. دار الشروق – ط ٧ – ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .

المبحث الثاني

القصور في مفهوم العبادة ومن صوره

١ – اختزال العبادة في الشعائر التعبدية.

٢ – فصل العبادة عن الواقع .

وإليك البيان :

١- اختزال العبادة في الشعائر التعبدية.

قبل بيان المعني الصحيح للعبادة وما أصاب ذلك المعنى من اختزال وخلل وقصور ننطلق إلى المعاجم العربية فى عجالة لنقف على مفهوم العبادة لغة :

يقول ابن منظور :

العبد الإنسان حراً كان أو رقيقاً ، يُذْهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه – جل وعز– وفي حديث عمر في الفداء مكان عَبْد عبد ، والعبد المملوك خلاف الحر ، قال سيبويه : هو في الأَصل صفة ، قالوا : رجل عبد ولكنه استُعمل استعمال الأَسماء والجمع أَعبد وعبيد ، مثل كَلْب وكَليب وهو جمع عزيز ، وعِبادٌ وعُبُد ، مثل سَقْف وسُقُف ، قرأَ بعضهم " وعُبُدَ الطاغوت " ومن الجمع أَيضاً عِبْدان بالكسر مثل جِحْشان ، وعُبْدان بالضم مثل تَمْر وتُمْران وعِبِدّان مشددة الدال ، وأَعابِدُ جمع أَعْبُد ، ويقال فلان عبد بيِّن العبودة والعبوديَّة والعَبْديَّة ، وأَصل العبوديَّة الخضوع والتذلل ،

وفي حديث أبي هريرة : " لا يقل أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي ، وليقل فتاي وفتاتي) (١١)

هذا على نفي الاستكبار عليهم ، وأن ينسب عبوديتهم إليه فإن المستحق لذلك الله – تعالى– هو رب العباد كلهم والعبيد ، وجعل بعضهم العباد لله وغيره من الجمع لله والمخلوقين ، ولا يقال عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله ، ومن عبد دونه إلهاً فهو من الخاسرين ، قال وأما عبد خدم مولاه فلا يقال عبده ، قال الليث : ويقال للمشركين هم عبدة الطاغوت ، ويقال للمسلمين عباد الله يعبدون الله ، والعابد الموحِّد .

قال الليث : العبدَى جماعة العبيد الذين ولدوا في العبودِيَّة ، وقال الزجاج في قوله – تعالى–: **(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)** **(الذاريات :٥٦)**

المعنى : ما خلقتهم إلا لأدعوهم إلى عبادتي ، وأنا مريد للعبادة منهم ، وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ممن يكفر به ، ولو كان خلقهم ليجبرهم على العبادة لكانوا كلهم عبَّاداً مؤمنين ، قال الأزهري : وهذا قول أهل السنَّة والجماعة ، والعبدل العبد ولامه زائدة ، وتعبَّد الرجل وعبَّده وأعبده صيَّره كالعبد ، وتعبَّد الله العبد بالطاعة أي استعبده .، وعبَّده واعتبده واستعبده اتخذه عبداً

(١١) متفق عليه : البخاري (كتاب) العتق) باب) كراهية التطاول على الرقيق وقول عبدى وأمتى – ج٣ ص ٩٠١– برقم ٢٤١٤. ومسلم (كتاب) الألفاظ من الأدب وغيرها (باب) حكم إطلاق العبد والأمة والمولى والسيد – ج٤– ص ١٧٦٤– برقم ٢٢٤٩.

وفي التنزيل : (**وتلك نعمةٌ تمنها علي أن عبَّدت بني إسرائيل)**

(سورة الشعراء/ الآية :٢٢)

وعبد الرجل عبودة وعبوديَّة وعبَّد ملكَ هو وآباؤه من قبل ، وعبد الله يعبده عبادة ومعبداً ومعبدة : تألَّه له ، ورجل عابد من قوم عبدة وعبد وعبَّد وعبَّاد ، والتَّعبُّد التَّنسُّك ، والعبادة الطاعة ، وقوله – تعالى– : (قل هل أُنبِّئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) (المائدة /:٦٠) والمعنى من لعنه الله ومن عبد الطاغوت من دون الله – عز وجل – قال الزجاج : وتأويلُ عبد الطاغوت أي : أطاعه يعني الشيطان فيما سول له وأغواه قال : والطاغوت هو الشيطان ،وقال في قوله – تعالى – :(إياك نعبد) أي : نطيع الطاعة التي يخضع معها : وقيل : إياك نوحِّد ، قال : ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع ، ومنه طريق معبَّد إذا كان مذللاً بكثرة الوطء .

وقول الله – تعالى– : (**وقومهما لنا عابدون**) (**سورة المؤمنون / الآية :٤٧**) أي دائنون ، وكلُّ من دان لملك فهو عابد له ، وقال ابن الأنبا ري : فلان عابد وهو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره ،وقوله – عز وجل – : (اعبدوا ربكم) أي : أطيعوا ربكم ، والمتعبد المنفرد بالعبادة ، والمعبَّد المكرَّم المعظَّم ، كأنه يعبد ، والتعبيد التذليل ، وبعير معبَّد مُذلَّل ، وطريق معبَّد مسلوك مذلل، وقيل هو الذي تكثُر فيه المختلفة ، قال الأزهري : والمعبَّد الطريق ،

وفي التنزيل (**قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين**)

(**سورة الزخرف / الآية : ٨١**

قال السدي: قال الله لمحمد : قل إن كان على الشرط للرحمن ولد كما تقولون لكنت أول من يطيعه ويعبده ، وقال الحسن وقتادة :(إن كان للرحمن ولد) على معنى ما كان .

(فأنا أول العابدين) : أول من عبد الله من هذه الأُمة

والتَّعبيدُ من قولك ما عبَّد أن فعلَ ذلك أي ما لَبثَ وما عتَّم وما كَذَبَ كلُه ما لَبثَ ، ويقال انثَلَ يعدو وانكدر يعدو وعبَّد يعدو إذا أسرع بعض الإسراع .. (١٢)

وعلى هذا فالعبادة لغة تدور حول معاني الخضوع والتذلل أي : استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقيادا لا مقاومة معه ، ولا عدول عنه ، ولا عصيان له حتى يستخدمه هو حسب ما يرضي ، وكيف يشاء ، وبذلك تعني الطاعة مع الخضوع والتنسك وتعنى كذلك اللزوم وعدم المفارقة وكذلك الحبس فتقول العرب : ما عبدك عني : أي: ما حبسك عنى وكذلك عبادة الله تعني الخضوع له والاستسلام والانقياد والطاعة مع ملازمة ذلك والمداومة عليه ، وعلى هذا فلا يمكن أن تكون العبادة مختزلة فى الشعائر التعبدية كما يزعم البعض إن كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " تعنى أن تكون العبادة كلها لله ....

(١٢) انظر مادة (عبد) لسان العرب / ابن منظور - ج٣- ص ٢٧٣ وما بعدها .

العبادة بمفهومها الواسع الشامل لا بمفهومها القاصر المختزل فى الشعائر التعبدية ، العبادة التى هى الغاية من خلق العباد كما قال ربنا – عز وجل – :

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }   (سورة الذاريات/ الآية :٥٦)

إن العبادة التي خلقنا الله من أجلها لا تقتصر على ركعات يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم والليلة، أو صيام أيام معدودات من كل عام ، أو إخراج الزكاة الواجبة أو حج البيت الحرام لمن استطاع إليه سبيلا، إن هذه الشعائر التعبدية من العبادة ، ولكنها ليست كل العبادة ، وهل تستغرق هذه الشعائر من حياة المسلم إلا النذر اليسير ؟

ففى أي شئ يقضى المسلم بقية حياته وهو المطالب بأن تكون حياته كلها لله ؟ بل ومماته كذلك ينبغى أن يكون لله ، ويؤكد هذا المعنى تلك الآية الشاملة لمفهوم العبادة

{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

(سورة الأنعام/ الآية:١٦٢)

إنه التجرد الكامل لله بكل خالجة في القلب ، وبكل حركة في الحياة : بالصلاة والاعتكاف ، وبالمحيا والممات ، وبالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ،وبالممات وما وراءه . (١٣)

---

(١٣) فى ظلال القرآن / سيد قطب – ج٢ – ص

ومعلوم أن الله – سبحانه – قد شرع النفس البشرية من التعبد ما يستغرق كل حركاتها وارادتها فما لم تتعبد له تعبدت لغيره ، وحول هذا المعني يقول شيخ الإسلام : فالإنسان له إرادة دائما ، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه ، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وارادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وارادته بل استكبر عن ذلك فلا بد أن له مرادا محبوبا يستعبده غير الله فيكون عبدا لذلك المراد المحبوب : إما المال والجاه ، ولما الصور ، ولما ما يتخذه إلها من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين ، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابا ، أو غير ذلك مما عبد من دون الله . (١٤)

وقد قال – تعالى – :

{فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ}

(سورة المائدة / الآية : ١٤)

فلما تركوا حظا مما ذكرهم الله به اعتاضوا عنه بغيره فكانت النتيجة وقوع العداوة والبغضاء بينهم .

وقال – : **{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤}**

(سورة طه / الآيتان : ١٢٣ – ٢٤)

(١٤) العبودية / ابن تيمية – ص ٣٠

فاتباع الهدى الرباني منجاة من الضلال والشقاء ، وتركه والإعراض عنه سبب فى الضيق والشقاء .

وقال ربنا – عز وجل – : {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} (سورة الأعراف/ الآية : ٣)

فمن لم يتبع هدى الله ومنهاجه اتبع هدى غيره ومنهاجه .

وحول المفهوم الصحيح للعبادة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

العبادة هى طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل .

وقال أيضا : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

قال ابن القيم :

ومدارها على خمس عشرة قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية ،

وبيان ذلك : أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح والأحكام التى للعبودية خمسة : واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

وقال القرطبى : أصل العبادة التذلل والخضوع ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى .

ومعنى الآية : أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته فهذا هو الحكمة في خلقهم .

قلت : وهي الحكمة الشرعية الدينية.

قال العماد ابن كثير : وعبادته هى طاعته بفعل المأمور وترك المحظور ، وذلك هو حقيقة دين الإسلام لأن معنى الإسلام : الاستسلام لله – تعالى– المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع .

وقال أيضا فى تفسير هذه الآية : ومعنى الآية أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك

له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب ، وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء فى جميع أحوالهم ، وهو خالقهم ورازقهم وقال علي بن أبى طالب – رضى الله عنه – فى الآية:

إلا لآمرهم أن يعبدوني ، وأدعوهم إلى عبادتي .

وقال مجاهد : إلا لآمرهم وأنهاهم .

اختاره الزجاج وشيخ الإسلام قال : ويدل على هذا قوله :

{أيحسب الإنسان أن يترك سدى } **(سورة القيامة/ الآية :٣٦)**

قال الشافعي : لا يؤمر ولا ينهى .

وقال فى القرآن فى غير موضع :{ اعبدوا ربكم } { اتقوا ربكم } فقد أمرهم بما خلقوا له وأرسل الرسل بذلك ،وهذا المعنى هو الذى قصد بالآية قطعا ، وهو الذى يفهمه جماهير المسلمين ويحتجون بالآية عليه. (١٥)

(١٥) فتح المجيد / عبد الرحمن حسن آل الشيخ – ج١– ص ١٤– ١٥.

فكل أمر يحبه الله ويرضاه عبادة : الصلاة والزكاة والصيام والحج والذكر والدعاء والاستغاثة والاستعانة والاستعاذة والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والإخلاص والرضا والثقة واليقين والذبح والنذر وبر الوالدين وحسن الخلق ، والشكر على النعماء ، والصبر على البلاء ، ورحمة الأرملة والمسكين وابن السبيل ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، ومجاهدة النفس ، وحسن الجوار ونصرة المظلوم ، وشهادة الحق ، والقسط ولوعل النفس والأقربين ، وغيرها من الأقوال والأفعال التى يحبها الله ويرضاها ولأجلها خلق الله الخلق ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب كما قال ربنا – سبحانه وتعالى – : **{وما أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }** **(سورة الأنبياء/ الآية :٢٥)**

– وقد ضل أقوام وصرفوا ألوانا من هذه العبادات لغير الله – فرأينا من يعدل مع الله غير فى الحب كما قال – تعالى – :

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } **(سورة البقرة/ الآية :١٨٥)**

– ومن ينذر لغير الله من الأولياء والصالحين ومن يذبح لغير الله ، والنذر عبادة لا تكون إلا لله كما قال الله :

{ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً } **(سورة الإنسان/ الآية:٧)**

- وعن الذبح يقول ربنا : { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } (سورة الكوثر :الآية :٢)

فقرن الله - سبحانه - بين الصلاة والنحر لأنهما عبادتان تدلان على التقرب والتواضع والافتقار ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : أمر الله أن يجمع بين هاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن وقوة اليقين وطمأنينة القلب إلى الله والى عدته عكس حال أهل الكبر والنفرة وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم ، والذين لا ينحرون له خوفا من الفقر ؛ ولهذا جمع بينهما في قوله : **{ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي }** والنسك الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه فإنهما أجل ما يتقرب به إلى الله ؛ فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله - تعالى- من الكوثر وأجل العبادات البدنية الصلاة ، وأجل العبادات المالية النحر ، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها كما عرفه أرباب القلوب الحية ، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن أمر عجيب وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - كثير الصلاة كثير النحر .

قلت : وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيرا فمن ذلك الدعاء والتكبير والتسبيح والقراءة والتسميع والثناء والقيام والركوع والسجود والاعتدال واقامة الوجه لله - تعالى - والإقبال عليه بالقلب ، وغير ذلك مما هو مشروع في الصلاة ،

وكل هذه الأمور من أنواع العبادة التي لا يجوز أن يصرف منها شئ لغير الله : وكذلك النسك يتضمن أمورا من العبادة كما تقدم في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى . (١٦)

وقد خاب قوم وخسروا فذبحوا لغير الله وتقربوا بالذبح لغير الله فاستحقوا بذلك لعنة الله ، وعن هؤلاء يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثا ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من غير تخوم الأرض . (١٧)

وانك لتجد اليوم نفرا كثيرا من هؤلاء يذبحون لغير الله من الأولياء والصالحين ، ويتقربون إليهم ، وينزلون بهم حاجاتهم ، وهؤلاء وان أقروا بكلمة التوحيد لفظا فقد جحدوها معنى؛ فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة كالحب والتعظيم والخوف والرجاء والتوكل والدعاء والاستغاثة والاستعانة ، وغير ذلك من أنواع العبادة ومن عجب أن مشركى العرب الأقدمين كانوا يتقربون إلى آلهتهم المفتراة بالذبح ويلجأون إليها فى الرخاء فإذا نزلت بهم فاقرة أو داهية لا يلجأون إلا إلى الله لعلمهم بأنه لا يكشف الضر إلا الله ، قال – تعالى – :

{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } (العنكبوت / ٦٥)

---

(١٦) تيسير العزيز الحميد / سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب – ص ٢٥

(١٧) (صحيح) رواه أحمد فى المسند ج١– ص ١٠٨– برقم ٣٤٦٢ وصححه الألبانى انظر السلسلة الصحيحة – ج١٠ – ص٥ .

وقال : **{وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً }** **(سورة الإسراء/ الآية :٦٧)**

قال الطبرى :

واذا نالتكم الشدة والجهد في البحر ضل من تدعون يقول : فقدتم من تدعون من دون الله من الأنداد والآلهة وجار عن طريقكم فلم يغثكم ، ولم تجدوا غير الله مغيثا يغيثكم دعوتموه فلما دعوتموه وأغاثكم وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه في البحر أعرضتم عما دعاكم إليه ربكم من خلع الأنداد والبراءة من الآلهة وافراده بالألوهية كفرا منكم بنعمته (١٨)

وأما مشركى هذا الزمان فإذا نزلت بهم شدة أو ألمت بهم داهية تركوا باب الله فلم يقفوا عليه ولجأوا إلى المقابر يستنجدون بأهلها ويستغيثون بهم ، ويخلصون الدعاء لهم مما يدلك على أن شركهم يزيد على شرك العرب بمراتب . وعلى أن جهلهم بالتوحيد يفوق جهل المشركين الأقدمين بالتوحيد .

- إن العبادة تعنى الطاعة المطلقة لله - جل وعلا - الطاعة المشوبة بالحب والرضي ، الطاعة التى تعنى فعل المأمور وترك المحظور ، وتأمل هذه الآيات التى وردت فيها العبادة بمعنى الطاعة ، يقول ربنا - سبحانه - :

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }

(سورة يس/ الآية:٦٠)

---

(١٨) جامع البيان / الطبرى - ج٨- ص ١١٤.

والمعنى : ألا تطيعوا الشيطان فطاعته عبادة له .

وقال ربنا :

{ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ{٢٢} مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ{٢٣} **(سورة الصافات / الآيتان :٢٢-٢٣)**

زيادة فى التبكيت والتوبيخ يجمع الأضراب والنظراء مع آلهتهم المفتراة التى أطاعوها فى معصية الله فيلقون فى النار جميعا .

وقال ربنا – عز وجل – :

{اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }

(سورة التوبة/ الآية:٣١)

عن عدي بن حاتم قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ في سورة براءة :

{اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ }

قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه . (١٩)

وفى رواية البيهقى فى شعب الإيمان :

(أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكن أطاعوهم فى المعاصى . (٢٠)

---

(١٩) (صحيح) الترمذى (كتاب) تفسير القرآن (باب) من سورة التوبة – ج٥ – ص٢٧٨– وصححه الألبانى ، انظر السلسلة الصحيحة – ج٩– ص٧٣ – برقم ٣٢٩٢.

(٢٠) شعب الإيمان / أحمد بن الحسين بن على بن موسى أبو بكر البيهقي – ج٧ – ص ٤٠ – برقم ٩٣٩٤.

إنهم ما سجدوا للأحبار والرهبان ولا ركعوا ، وانما أطاعوهم طاعة عمياء فكانت هذه الطاعة العمياء عبادة لهم .

(وبعد أن يقيم القرآن البرهان على كون جميع من عبدهم الناس بوجه من الوجوه عبيدا لله وعاجزين أمامه ، يدعو جميع الإنس والجن إلى أن يعبدوا الله – تعالى وحده – بكل معنى من معاني العبادة المختلفة فلا تكون العبودية إلا له ،ولا يطاع إلا هو ، ولا يتأله المرء إلا له

ولا تكون حبة خردل من أي تلك الأنواع للعبادة لوجه غير الله :

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } (سورة النحل/ الآية :٣٦)

{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ } (سورة الزمر/ الآية : ١٧)

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠}وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ {٦١} (سورة يس/ الآيتان : ٦٠-٦١)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }

(سورة البقرة/ الآية:١٧٢)

فقد أمر الله – تعالى فى هذه الآيات أن تخص له العبادة التى هى عبارة عن العبدية والعبودية والإطاعة والإذعان ، وقرينة ذلك واضحة فى الآيات ؛ فإن الله – تعالى –

يأمر فيها أن اجتنبوا إطاعة الطاغوت والشيطان والأحبار والرهبان والآباء والأجداد واتركوا عبديتهم جميعا ، وادخلوا فى إطاعة الله الواحد الأحد وعبديته :

{قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } (سورة غافر/٦٦)

{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } (سورة غافر / الآية : ٦٠)

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ{١٣} إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ...} (سورة فاطر / الآيتان :١٣-١٤)

{قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (سورة المائدة / الآية : ٧٦

وقد أمر الله – تعالى – فى هذه الآيات أن تختص له العبادة بمعنى التأله ، وقرينة ذلك أيضا واضحة فى الآية : وهو أن كلمة العبادة قد استعملت فيها بمعنى الدعاء . (٢١)

ومن ذلك أيضا قوله – تعالى – :

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١٩٤} أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ{١٩٥}إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ{١٩٦} وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ{١٩٧}

(سورة الأعراف / الآيات من :١٩٤-١٩٧)

وقوله – سبحانه – :

{وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا{٤٨} فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ... {٤٩}

(سورة مريم / الآيتان :٤٨- ٤٩)

وقوله – عز وجل – :

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ{١٠٢}

(سورة الأنعام / الآية : ١٠٢)

(٢١) المصطلحات الأربعة فى القرآن / أبو الأعلى المودودى – ص ٧٥-٧٦ – دار الفرقان – ط١ – ١٩٧٥م

وقوله – جل وعلا – :

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }

(سورة يونس/ الآية : ١٠٤)

وقوله : {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ{٥}وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ{٦}

(سورة الأحقاف / الآيتان : ٥– ٦)

وقوله :{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ{١٧} قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً{١٨}

(سورة الفرقان / الآيتان :١٧–١٨)

وقوله :

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ{٤٠}قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ {٤١}

(سورة سبأ /الآيتان :٤٠–٤١)

- إن مقتضى العبادة الحقيقية القائمة على الحب التام، والخضوع التام لله رب العالمين أن يخضع العبد لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وأن يقدم محاب الله على محاب نفسه وهواه، وأن يخضع وينقاد لشرعة فإذا أمره الله أو نهاه، أو أحل له، أو حرم عليه، كان موقفه في ذلك ما أمره الله به فما عليه إلا أن يقول :

{سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }

(سورة البقرة / الآية :٢٨٥)

٢- فصل العبادة عن الواقع .

- ولا شك أن من أدى الشعائر التعبدية من صلاة وصيام، وزكاة، وحج، ولكنه لم يخضع لشرع ربه، وقال : أنا حر أشرب الخمر، وأوالي الكفار، وأزني، وأتحاكم إلى غير شرع الله أقول : لا شك أنه من كان كذلك كان مخالفا لمقتضى العبادة الحقيقية التي أمرنا الله بها، ومثله من أدى الشعائر التعبدية، ولم يخضع لأحكام المعاملات الإسلامية كالذي يعق والديه، ويسيء إلى جيرانه، ويتعامل بالربا ويغش الناس، ويأكل أموالهم بالباطل، ومثله أيضا من أدى الشعائر التعبدية، ولم يخضع لآداب وأخلاق الإسلام كالذي يخون الأمانة، ويكذب، ويتشبه بالكفار، وكالمرأة التي تتبرج، ولا تلتزم بالحجاب.

إنه ليس بعابد لله من ظن أن عبوديته لله لا تتعدى جدران المسجد، فإذا انطلق إلى ميادين الحياة المتشعبة، فهو يعبد شهوته وهواه، يفعل ما يشاء، وينتهك حرمات الله، ويسعى فى الأرض ليهلك الحرث والنسل ، وكأنه ما صلى ولا قام ، وما للصلاة أثر على أخلاقياته ، أين هذا من قول الله – عز وجل – :

{ اتْلُ ما أُوحي إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ }

(سورة العنكبوت /الآية :٤٥)

وهذا الفصام المنكود بين العبادة والسلوك لهو من شر الفتن التى ابتليت بها الأمة الإسلامية ، فكم من رجل لبس مسوح أهل الصلاح وتزيا بخلعتهم ، وهو فاسد القلب ، ميت الضمير ، سيئ الخلق ؛ ينفر الناس بسببه من الالتزام وأهل الالتزام ، بل ويحكمون عليهم جميعا من خلاله، ومن أجل ذلك قال نبى الله شعيب – عليه السلام – لقومه كما حكى القرآن :

{قَالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ ما اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ{٨٨}

(سورة هود / الآية ٨٨)

فلا يصح بحال أن يخالف المسلم الناس إلى ما ينهاهم عنه ، لا يصح أن يأمرهم بالمعروف ثم لا يأتيه ، أو أن ينهاهم عن المنكر ويأتيه ، والا فهى فتنة فى الأرض وفساد كبير

هذا وقد كان من دعاء المؤمنين الأوابين أن يقولوا :

{ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٥}

(سورة الممتحنة / الآية :٥)

وهذه الفتنة قد تكون بتسليط الذين كفروا على الذين آمنوا بالتعذيب حتى يظن الذين كفروا أن ذلك التسلط دليل على صلاحهم وفساد الذين آمنوا ؛ ولسان حالهم : لو كان الذين آمنوا على الحق ما سلطنا عليهم ، ولكان

إيمانهم حائلا دون نيلهم بسوء .

وقد يكون المعنى : لا تجعلنا مفرطين مذنبين مخالفين لشرعتك ومنهاجك فيرانا الناس على تلك الحال فيحكمون على دين الإسلام من خلالنا فنصد هم عن الإيمان وتلك فتنة .

ومن ثمار الالتزام الحقيقي لا الأجوف سلامة شخصية المسلم من الازدواجية والتخبط ؛ لأن العبادة الحقيقية التي يريدها الله بمفهومها الواسع تمنح المسلم وحدة الغاية في حياته كلها، فربه واحد، ودينه واحد، وغايته واحدة، وهي رضا الله – سبحانه وتعالى – قد أخلص في عمله لله تعالى، وعلق قلبه بالله، لا يريد إلا رضاه.

لذلك نجد أن هذا المسلم صاحب الشخصية السليمة والسوية، ليس ممن يعبد الله في المسجد فقط، فإذا خرج إلى ميادين الحياة المختلفة عبد شهوته وهواه، وانتهك حرمات الله، كلا إنه يعبد الله وحده لا شريك له في المسجد، وفي غير المسجد، قد سخر حياته كلها في عبادة الله، ودليله في ذلك وحي الله، وغايته رضوان الله تعالى، ممتثلا أمر ربه عز وجل:

{قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

(سورة الأنعام/ الآية:١٦٢)

- إن الكتاب والسنة قد أعطيا لكل شعيرة من الشعائر التعبدية بعدا نفسيا وسلوكيا فلا يكفى أداء الشعيرة ، بل لابد من تأثيرها على المرء المسلم ، وتوجيهها لسلوكه نحو الأقوم والأجمل دائما ، وتأمل هذه النصوص : قال ربنا - عز وجل - : **{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }** **(سورة البقرة/ الآية : ١٨٣)**

فالحكمة الأهم من الصوم هى تقوي الله ، وذلك يكون بفعل ما أمر وترك ما نهي عنه وزجر والتقوى هى التى ترد المسلم عن الفساد والإفساد ، وتعينه على الإحسان فى كل شئ .

وقال – سبحانه – :{ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** } (سورة البقرة/ الآية ١٩٧)

وليس معنى أنه لا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج أن يكون الرفث فى غيره ، وانما المعنى أن الحج مدرسة تربى المسلم على التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي عن سفاسفها ؛ فليس يقبل من المسلم بعد العودة من الحج أن يقترف القبائح .

وقال – سبحانه – :{ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } (سورة التوبة/ الآية : ١٠٣)

فالهدف من الزكاة والصدقة التربية والتزكية لا الرياء والسمعة .

{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ{٢٧} لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ{٢٨} ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ{٢٩} ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ{٣٠}حُنَفَاء لِلّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ{٣١} ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ{٣٢}

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ{٣٣} وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ{٣٤} الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ{٣٥} وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{٣٦} لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ{٣٧}

(سورة الحج / الآيات من :٢٧- ٣٧)

فالحج مدرسة تربى المسلم على الصبر وعلى تعظيم شعائر الله وحرماته ، والذبح فيه هدفه تقوي الله .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : **{يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم}**

(المؤمنون/الآية : ٥١)

وقال :{ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** }(**سورة البقرة :١٧٢**)

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمة حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟ !(٢٢)

و عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال :

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) (٢٣)

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) (٢٤)

---

(٢٢) (صحيح) مسلم (كتاب)الزكاة (باب) قبول الصدقة من الكسب الطيب – ج٢–ص ٧٠٣– برقم ١٠١٥.

(٢٣) البخاري (كتاب) الصوم (باب) من لم يدع قول الزور والعمل به فى الصوم – ج٢ – ص ٦٧٣ – برقم ١٨٠٤.

(٢٤) متفق عليه : البخاري (كتاب) الحج (باب) وجوب العمرة وفضلها – ج٢ ص ٦٢٩ – برقم ١٦٨٣.

مسلم (كتاب) الحج (باب) فضل الحج والعمرة ويوم عرفة – ج٢ – ص ٩٨٣ – رقم ١٣٤٩ .

وخلاصة هذه الآيات والأحاديث أن الشعائر التعبدية ذات مقتضيات ، وأنها لا تنتهي بذات نفسها ، أي بمجرد أدائها ، إنما تصحبها وتتبعها مقتضيات هي التي تعطيها معناها الحقيقي ومهمتها الحقيقية فى حياة الأمة . (٢٥)

إذن فمفهوم العبادة في الإسلام واسع وشامل لكل جوانب الحياة من شعائر تعبدية ومعاملات وأنظمة بناء الدولة، وآداب وأخلاق، بل وحتى الحاجات الضرورية التي يؤديها المسلم استجابة لدافع الغريزة البشرية كالأكل، والشرب، ومباشرة الزوج لزوجته (بشرط توفر النية الصالحة .

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام :

كيف يستطيع المسلم أن يجعل حياته كلها عبادة لله – تعالى – فلا تنقضي لحظة من لحظات حياته إلا وهو في عبادة يؤجر عليها ؟

إن المسلم يستطيع أن يجعل حياته كلها عبادة لله تعالى، بالإرادة : إرادة الخير ، وابتغاء وجه الله بالعمل ، فإذا قصد العبد بأعماله وجه الله – تعالى ، واذا أراد الآخرة ولم يكن سعيه وكده من أجل الدنيا ، عندها تكون حياته كلها عبادة ، ولقد جاءت النصوص الشرعية موضحة هذا الأمر، ومن هذه النصوص قوله – تعالى – : **{ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً{١٨} ومَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً{١٩}** (سورة الإسراء / الآيتان : ١٨ – ١٩)

(٢٥) مفاهيم ينبغى أن تصحح / محمد قطب – ص ٢٣١ .

قال الألوسى – رحمه الله –

من كان يريد العاجلة لكدورة استعداده وغلبة هواه وطبيعته (عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما) عن ذوي العقول ، مدحورا في سخط الله تعالى وقهره . (ومن أراد الآخرة) لصفاء استعداده وسلامة فطرته .

(وسعى لها سعيها) اللائق بها ، وهو السعي على سبيل الاستقامة وما ترتضيه الشريعة. وقال بعضهم : السعي إلى الدنيا بالأبدان ، والسعي إلى الآخرة بالقلوب ، والسعي إلى الله تعالى بالهمم .

(وهو مؤمن) ثابت الإيمان لا تزعزعه عواصف الشبه.

(فأولئك كان سعيهم مشكورا) مقبولا مثابا عليه .

وعن أبي حفص أن السعي المشكور : ما لم يكن مشوبا برياء ولا بسمعة ولا برؤية نفس ولا بطلب عوض ، بل يكون خالصا لوجهه – تعالى – لا يشاركه في ذلك شيء . (٢٦)

والآيتان الكريمتان تدلان على أن الإنسان إنما تميزه الإرادة فبها يعلو ويفلح أو بها يسفل ويشقى : فمن كان ذا همة عالية تدور هنالك حول العرش يريد المعالى ويسعى لأجلها فهذا مدرك طلبته ، محقق بغيته ، مفلح فى الدنيا والآخرة ، ومن كان ذا همة سافلة ، لا يريد إلا الدنيا ، من أجلها يسعى ، ولأجلها يعمل ، وفيها يتنافس ، وعليها يتقاتل فهذا هو الذى يشقى بهمته ، وترديه إرادته .

(١) روح المعانى / للألوسى – ج ١٥ – ص ٥٢ .

يقول ابن القيم – رحمه الله – :

من مفسدات القلب ركوبه بحر التمني وهو بحر لا ساحل له ، وهو البحر الذى يركبه مفاليس العالم كما قيل :

إن المنى رأس أموال المفاليس ، وبضاعة ركابه مواعيد الشياطين ، وخيالات المحال والبهتان ، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطلة تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة ، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية ، بل اعتاضت عنها بالأماني الذهبية ، وكل بحسب حاله : من متمن للقدرة والسلطان وللضرب فى الأرض والتطواف في البلدان ، أو للأموال والأثمان ، أو للنسوان والمردان ؛ فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها ، والتذ بالظفر بها ؛ وبينا هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير .

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذى يقربه إلى الله ، ويدنيه من جواره ، فأماني هذا إيمان ونور وحكمة ، وأماني أولئك خدع وغرور . (٢٧)

فالعبادة إذن فعل ما أمر الله ورسوله به وترك ما نهيا عنه .

والعبادة فى كل لحظة من لحظات حياتنا ، وفى كل مكان من الأرض لا فى المسجد وحده.

(٢٧) مدارج السالكين / ابن القيم – ج١– ص ٤٥٦–٤٥٧

ونختم بهذا الحديث النبوي الذى يؤكد على سعة مفهوم العبادة ، وفيه يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة ك فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ن وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى . (٢٨)

وعن عائشة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل : فمن كبر الله ، وحمد الله ، وهلل الله ، وسبح الله ، واستغفر الله ، وعزل حجرا عن طريق الناس ، أو شوكة أو عظما من طريق الناس ، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر ، عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار (٢٩)

إن حقيقة العبادة لو كانت هى مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب من الرسل والرسالات ، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التى بذلها الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – ، وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التى تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ، أنما الذى استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد وردهم إلى الدينونة لله – وحده – فى كل أمر وفى كل شأن ، وفى منتهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء.

(٢٨) صحيح مسلم (كتاب) صلاة المسافرين (باب) استحباب صلاة الضحى – ج١ ص ٤٩٨– برقم ٧٢٠ .

(٢٩) صحيح مسلم (كتاب) الزكاة (باب) بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف – ج٢ – ص ٦٩٨ – برقم ١٠٠٧ .

إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية ،وتوحيد مصدر الشريعة وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التى يدين لها الناس الدينونة الشاملة ...إن هذا التوحيد هو الذى يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وأن تبذل فى سبيله كل هذه الجهود ، وتتحمل فى سبيله كل هذه العذابات والآلام عل مدار الزمان ، لا لأن الله – سبحانه – فى حاجة إليه ؛ فالله – سبحانه– غنى عن العالمين ؛ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة بالإنسان إلا بهذا التوحيد الذى لا حد لتأثيره فى الحياة البشرية فى كل جوانبها على السواء . (٣٠)

(٣٠) ظاهرة الإرجاء فى الفكر الإسلامى / د.سفر الحوالى – ص٩٦– ٩٧ –مكتبة الطيب –مصر – ط ٢– ١٤١٨هـ .

المبحث الثالث

القصور في مفهوم الإيمان

ومن صور ذلك

١- الاعتقاد أن الإيمان يعنى المعرفة أو التصديق فقط

٢- الاعتقاد أن الإيمان يعنى الإقرار فقط .

واليك البيان والتفصيل :

١- الاعتقاد أن الإيمان يعنى المعرفة أو التصديق فقط

ذهب عامة أهل السنة إلى أن الإيمان اعتقاد بالقلب و إقرار باللسان وعمل بالجوارح ، وقد روى الإمام أبو القاسم اللالكائى (٣١) عن الإمام البخارى قوله : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء فما رأيت أحدا منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص . (٣٢)

---

(٣١) الإمام اللالكائى : أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى اللالكائى درس فقه الشافعي على أبى حامد الاسفرائينى وروى عنه الخطيب البغدادي وغيره ، له مصنفات من اشهرها : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، وهو من أجمع الكتب فى عرض أصول أهل السنة والآثار عن السلف فى ذلك ، توفى سنة ٤١٨هـ ، انظر سير أعلام النبلاء للذهب ج١٧- ص ٤١٧ وتاريخ بغداد ج١٤- ص ٧٠

(٣٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة/ أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائى- ج٥- ص ٨٨٦- ٨٣١- دار طيبة - الرياض - ط١ - ١٤٠٢هـ - تحقيق / د. أحمد سعد حمدان .

وقد ضل قوم فزعموا أن الإيمان يعنى التصديق فقط ، أو يعنى المعرفة والتصديق ، وهو مذهب جهم بن صفوان (٣٣) ومن دار فى فلكه ، وهذا الفهم يعنى إخراج العمل من مسمى الإيمان ، وقد تبنى جمهور الأشاعرة والماتريدية ذلك المذهب – وان لم يلتزم كثير منهم بلوازمه – وهذه مجموعة من النقولات المختصرة عن أئمتهم تبين ذلك :

١– قال الأشعري (٣٤) في اللمع : فإن قال قائل : ما الإيمان عندكم بالله تعالى ؟

قيل له :

هو التصديق بالله ، وعلى ذلك إجماع أهل اللغة التى نزل بها القرآن ؛ فلما كان الإيمان فى اللغة التى نزل بها القرآن الكريم هو التصديق ، قال تعالى :

{وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين } **(سورة يوسف/ الآية :١٧)**

---

(٣٣) الجهم بن صفوان : السمرقندى أبومحرز ، قال عنه الذهبي : رأس الجهمية زرع شرا عظيما وهو من أكثر الشخصيات أثرا على عامة الطرق الكلامية حيث فتح باب التأويل ، وقال بالجبر وأن الإيمان المعرفة فقط ، وأن الجنة والنار تفنيان ، وقد أمر بقتاه نصر بن سيار فقتل سنة ١٢٨هـ ، انظر ميزان الاعتدال ج١– ص ٤٢٦ ولسان الميزان ج٢– ص١٤٢ .

(٣٤) عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى أبو الحسن الأشعري المتكلم صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة ، ولد سنة ٢٦٠هـ وهو بصري سكن بغداد إلى أن توفي بها ، وكان يجلس أيام الجمعات في حلقة أبي إسحاق المروزي الفقيه من جامع المنصور ، وقد تاب أبو الحسن آخر حياته ورجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وألف كتاب الإبانة ، واخذ يفند مزاعم المعتزلة ويدفع شبههم وقد مات سنة ٣٣٠هـ فرحمه الله رحمة واسعة ، انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي – ج١١ ص ٣٤٦. وهذا القول الذى نقلناه عن أبى الحسن كان قبل توبته ورجوعه إلى مذهب أهل السنة والجماعة .

وقالوا جميعا :

فلان يؤمن بعذاب القبر والشفاعة يريدون يصدق بذلك فوجب أن يكون الإيمان هو ما كان عند أهل اللغة إيمانا : وهو التصديق . (٣٥)

والنص يدل على أن أبا الحسن الأشعري يرى أن الإيمان يعنى التصديق فقط دون الإقرار والعمل ، وقد اعتمد فى تفسيره على اللغة .

٢- ويقول البغدادي (٣٦) :

الطاعات عندنا أقسام :

أعلاها يصير بها المطيع عند الله مؤمنا ويكون عاقبته لأجلها الجنة إن مات عليها :

وهى معرفة أصول الدين فى العدل والتوحيد والوعد والوعيد والنبوات والكرامات ومعرفة أركان شريعة الإسلام ، وبهذه المعرفة يخرج من الكفر .

(٣٥) اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع / أبو الحسن الأشعري - ص ١٢٣. ط مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة ١٩٧٥م - تحقيق محمد غرابة .

(٣٦) عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفراييني من أئمة الأصول والكلام ، ولد ونشأ ببغداد ،ورحل إلى خراسان ، واستقر بنيسابور ، كان يدرس فى سبعة عشر فنا ، درس على الأستاذ أبى إسحاق الإسفراييني ، وقعد بعده للإملاء مكانه ، وحمل عنه العلم أكثر أهل خراسان ، له تصانيف كثيرة أشهرها : الفرق بين الفرق وأصول الدين ، مات فى إسفرائين سنة ٤٢٩هـ ، انظر طبقات الشافعية ج٣- ص ٢٣٨و وفيات الأعيان ج١ ص ٢٩٨ ، الأعلام ج٤ ص ٤٨ .

والقسم الثانى : إظهار ما ذكرناه باللسان مرة واحدة ، وبه يسلم من الجزية والقتال والسبي والاسترقاق ، وبه تحل المناكحة واستحلال الذبيحة والموارثة والدفن فى مقابر المسلمين والصلاة عليه وخلفه .

والقسم الثالث : إقامة الفرائض واجتناب الكبائر وبه يسلم من دخول النار ، ويصير به مقبول الشهادة .

والقسم الرابع منها : زيادة النوافل وبها يكون له الزيادة فى الكرامة والولاية .....(٣٧)

فالبغدادي كما يتبين من النص السابق يقرر أن المعرفة وحدها تكفى لخروج العبد من الكفر ولنجاته عند الله ولدخوله الجنة وتأمل فى ذلك قوله :

الطاعات عندنا أقسام :

أعلاها يصير بها المطيع عند الله مؤمنا ، ويكون عاقبته لأجلها الجنة إن مات عليها :

وهى معرفة أصول الدين فى العدل والتوحيد والوعد والوعيد والنبوات والكرامات ، ومعرفة أركان شريعة الإسلام ، وبهذه المعرفة يخرج من الكفر .

وأما قول اللسان فليس عنده جزءا من الإيمان ولكنه شرط لإجراء الأحكام الدنيوية : فبه يسلم من الجزية والقتال والسبي والاسترقاق ، وبه تحل المناكحة واستحلال الذبيحة والموارثة والدفن فى مقابر المسلمين والصلاة عليه وخلفه.

(٣٧) أصول الدين / عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفراييني – ص٢٦٨

٢- قال أبو المعين النسفى (٣٨) : الإيمان فى اللغة عبارة عن التصديق ، فكل من صدق غيره فيما يخبره يسمى فى اللغة مؤمنا به ومؤمنا له ، قال الله تعالى – خبرا عن أخوة يوسف – صلوات الله عليهم – :

{وما أنت بمؤمن لنا } **(سورة يوسف/ الآية :١٧)**

أي بمصدق لنا ، ثم هذا اللغوي وهو التصديق بالقلب هو حقيقة الإيمان الواجب على العبد حقا لله – تعالى – ، وهو أن يصدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيما جاء به من عند الله – تعالى – ، فمن أتى بهذا التصديق فهو مؤمن فيما بينه وبين الله – تعالى –

والإقرار إقرار يحتاج إليه ليقف عليه الخلق فيجروا عليه أحكام الإسلام ، هذا هو المروى عن أبى حنيفة – رحمه الله – ، واليه ذهب الشيخ أبو منصور الماتريدي – رحمه الله – وهو أصح الروايتين عن أبى الحسن الأشعري . (٣٩)

(١) أبو المعين النسفى : ميمون بن محمد بن مكحول النسفى نسبة إلى نسف من بلاد ما وراء النهر ، وبعد من أبرز شخصيات المدرسة الماتريدية بعد الماتريدي ، صنف عدة مصنفات فى نصرة مذهبه أبرزها كتاب : تبصرة الأدلة والتمهيد فى أصول الدين وتوفى سنة ٥٠٨ هـ ، انظر الأعلام ج٧– ص ٣٤١ .

(٢) التمهيد فى أصول الدين / أبو المعين النسفى ص ٩٩– ١٠٠.– دار الثقافة القاهرة – ط ١ – ١٤٠٧هـ – تحقيق / عبد الحي قابيل .

ومعلوم أن قوله : هذا هو المروى عن أبى حنيفة – رحمه الله – تأويل منه لمذهب الإمام أبى حنيفة ليوافق مذهبه، وهو تأويل مرفوض ؛ لأن مذهب أبى حنيفة فى باب الإيمان ولن قال إن الإيمان يعنى التصديق فإنه يدخل عمل القلب فى مسمى الإيمان سواء أدخلوه تحت اسم التصديق باعتبار تصديق عمل القلب لقول القلب ، أو تحت اسم الإقرار باعتبار دخول الالتزام فى معنى الإقرار ، ومعلوم أن خلاف أبى حنيفة مع جمهور السلف فى باب الإيمان خلاف لفظي فقط .

٤– ويقول الشيخ الملا على القاري: وذهب جمهور المحققين إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، وانما الإقرار شرط لإجراء الأحكام فى الدنيا لما أن تصديق القلب أمر باطني لابد له من علامة فمن صدق بقلبه ، ولم يقر بلسانه فهو مؤمن عند الله – تعالى – ولن لم يكن مؤمنا فى أحكام الدنيا ، ومن أقر بلسانه ولم يصدق بقلبه كالمنافق فهو بالعكس ، وهذا هو اختيار الشيخ أبى منصور الماتريدي – رحمه الله – والنصوص موافقة لذلك ...(٤٠)

ولو أن هذا المذهب الذى يرى أن الإيمان هو التصديق فقط أو المعرفة والتصديق مذهب درس وخلت أيامه ، ولم يعد منه إلا ذكراه المؤلمة لكان الأمر يسيرا ، ولكان الحديث عنه عبثا لا طائل منه وايقاظا لفتنة خبت نارها ، ولكن لهذا المذهب تياره الجاري إلى اليوم ، وله أنصاره المؤيدون له والداعون إليه.

(١) شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان / ملا على القاري– ص ٦٩ – ٧٠ – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٤٠٤هـ

وإليك هذا النص لأحد الشيوخ المعاصرين والذى يؤكد ذلك حيث يقول :

والنطق بهما أي : الشهادتين شرط لإجراء الأحكام الدنيوية على المسلم مثل تزويجه المسلمة والصلاة خلفه والصلاة عليه إذا مات ودفنه فى مقابر المسلمين ، فإذا لم ينطق لعذر كالخرس ، أو لم يتمكن من النطق بهما بأن مات عقب إيمانه بقلبه فهو ناج عند الله – تعالى – أما إذا استطاع النطق ووجد وقتا كافيا ولم ينطق بالشهادتين فإن كان عدم النطق عنادا فهو كفر ولا عبرة بالتصديق القلبي ، أما إذا كان عدم النطق لخوفه من الهلاك فالإيمان صحيح لقوله – تعالى– :

{لاَ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ } **(سورة النحل/ الآية : ١٠٦)**

أما من لم ينطق بالشهادتين لغير سبب من الأسباب ولكنه مصدق بقلبه ومطمئن إلى دين الله وأحكامه فالقول الراجح أنه ناج عند الله ، ولن كان لا يعامل معاملة المسلمين لعدم العلم بإيمانه وعدم الدليل عليه. (٤١)

وهذا الكلام ما هو إلا ترديد وتقليد لما قاله المرجئة المتكلمين أردت بنقله الإشارة إلى أثر هذا الرأي على بعض الدعاة المعاصرين ممن يقترض فيهم توعية الأمة عن مثل هذه الانحرافات العقدية المخالفة لمنهج السلف الصالح لا أن يدعو الأمة إليها . (٤٢)

---

(٤١) تبسيط العقائد الإسلامية / حسن أيوب – ص٣٣ – دار الاعتصام – ط ٣ – ١٣٩٨هـ .

(٤٢) نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف / محمد بن عبد الله بن على الوهيبي– ج١– ص ١٧٩ – دار المسلم – الرياض – ط١– ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .

– وهذا القول الذى يرى الإيمان مجرد المعرفة أو المعرفة والتصديق قول باطل مردود على أهله ، تدحضه شموس البراهين القرآنية والنبوية ، وتدمغه قذائف الحق القوية فإذا هو زاهق ؛ إذ لو صح كون الإيمان يعنى المعرفة فقط لكان إبليس من المؤمنين ، وقد كان يعرف الحق ، وكذلك لكان فرعون من المؤمنين وقد كان يعلم أن موسى – عليه السلام – صادقا فيما جاء به ، وأن ما جاء به من البينات هو الحق :

{قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً } **(سورة الإسراء/ الآية : ١٠٢)**

ومن المعلوم أن تفسير الإيمان بمعنى التصديق اعتمادا على اللغة تفسير تفوته الدقة؛ وذلك لأن القرآن والسنة قد حملا كثيرا من الألفاظ معاني جديدة لم تكن معروفة لغويا قبل الإسلام ؛ وتأمل فى ذلك كلمات مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج فقد أصبح لها بعد الإسلام معاني مختلفة تماما عن معانيها المعروفة قبل الإسلام ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

مما ينبغى أن يعلم أن الألفاظ الموجودة فى القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبى لم يحتج فى ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ؛

ولهذا قال الفقهاء : الأسماء ثلاثة أنواع :

نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة .

ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر.

ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف فى قوله:

(وعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) **(سورة النساء / الآية :١٩)**

ونحو ذلك .

وروى عن ابن عباس أنه قال :

تفسير القرآن على أربعة أوجه :-

١- تفسير تعرفه العرب من كلامها .

٢-وتفسير لا يعذر أحد بجهالته.

٣- وتفسير يعلمه العلماء .

٤- وتفسير لا يعلمه إلا الله من ادعى علمه فهو كاذب .

فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بين الرسول ما يراد بها فى كلام الله ورسوله ، وكذلك لفظ الخمر وغيرها ، ومن هناك يعرف معناها ، فلو أراد أحد أن يفسرها بغير ما بينه النبى لم يقبل منه ، وأما الكلام فى اشتقاقها ووجه دلالتها فذاك من جنس علم البيان وتعليل الأحكام هو زيادة فى العلم وبيان حكمة ألفاظ القرآن ، لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا .

واسم الإيمان والإسلام والنفاق والكفر هى أعظم من هذا كله ؛ فالنبي قد بين المراد بهذه الألفاظ بيانا لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك ؛ فلهذا يجب الرجوع فى مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله فإنه شاف كاف ، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة ، بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة فى معنى الإيمان علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول ، ويعلم بالاضطرار أن طاعة الله ورسوله من تمام الإيمان ، وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنبا كافرا ، ويعلم أنه لو قدر أن قوما قالوا للنبي نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ، ونقر بألسنتنا بالشهادتين إلا أنا لا نطيعك فى شيء مما أمرت به ونهيت عنه : فلا نصلى ولا نصوم ، ولا نحج ، ولا نصدق الحديث ، ولا نؤدي الأمانة ، ولا نفى بالعهد ، ولا نصل الرحم ، ولا نفعل شيئا من الخير الذى أمرت به ، ونشرب الخمر ، وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر ، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك ، ونأخذ أموالهم بل نقتلك أيضا ونقاتلك مع أعدائك !!

هل كان يتوهم عاقل أن النبى – صلى الله عليه وسلم – يقول لهم : أنتم مؤمنون كاملو الإيمان ، وأنتم من أهل شفاعتى يوم القيامة ، ويرجى لكم أن لا يدخل أحد منكم النار ، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم : أنتم أكفر الناس بما جئت به ، ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك . (٤٣)

(٤٣) مجموع الفتاوى / ابن تيمية – ج٧ ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

٢- الاعتقاد أن الإيمان يعني الإقرار فقط

وقد ذهبت الكرامية (٤٤) إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ، وهو – كما تري – قول عجيب غريب لم يسبقهم أحد إليه ؛ إذ لو صح ذلك لكان المنافقون مؤمنين ، ولما كان على الإنسان حرج أن يعب من بحر الموبقات وأن ينهل من معين الشهوات كيفما يشاء ولا بأس فى ذلك ما دام يقر بالإيمان بلسانه ، وينطق بذلك لا يخفيه ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

والكرامية قولهم فى الإيمان قول منكر لم يسبقهم إليه أحد ؛ حيث جعلوا الإيمان قول اللسان ولن كان مع عدم تصديق القلب ، فيجعلون المنافق مؤمنا لكنه يخلد فى النار ، فخالفوا الجماعة فى الاسم دون الحكم ، وأما فى الصفات والقدر والوعيد فهم أشبه من أكثر طوائف الكلام التى فى أقوالها مخالفة للسنة . (٤٥)

---

(٤٤) الكرامية : أتباع محمد بن كرام أبو عبد الله السجستانى (ت ٢٥٥هـ) ، ومن بدعهم المشهورة قولهم بأن الله جسم ، وأنه محل للحوادث ، وقولهم : إن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان ، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو عمل الجوارح من الإيمان ، وزعموا أن المنافقين مؤمنون على الحقيقة مستحقون للعقاب فى الآخرة ، فنازعوا فى اسمه لا فى حكمه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وهذا القول هو الذى اختصت به الكرامية وابتدعته ، ولم يسبقها أحد إلى هذا القول ، وهو آخر ما أحدثت من الأقوال فى الإيمان ، مجموع الفتاوي ج١٣– ص ٥٦.

وقال الذهبي : وكانت الكرامية كثيرين بخراسان ولهم تصانيف ، ثم قلوا وتلاشوا نعوذ بالله من الأهواء، انظر سير أعلام النبلاء / للذهبي ج١١ – ص ٥٢٣ – ٥٢٤ .

(٤٥) مجموع الفتاوى / ابن تيمية – ج٣ – ص١٠٣ .

والحق الذى ينبغي أن تربى الأجيال المسلمة عليه ، والذى يتلاءم مع طبيعة هذا الدين أن الإيمان قول واعتقاد وعمل ، وهذا ما عليه جمهور السلف ، وتؤيده نصوص الوحي قرآنا وسنة يقول الإمام اللالكائى – رحمه الله – :

الإيمان تلفظ باللسان ، واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح .

قالوا الدال على أنه تلفظ باللسان قوله– عز وجل – :

{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ... }(الحجرات /:١٤)

وما روى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – :

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها) (٤٦)

والدال على أنه اعتقاد بالقلب قوله : { وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ }

وقوله :**{ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ }** **(سورة الحجرات /الآية :٧)**

وقوله :

{أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} **(سورة المجادلة / الآية :٢٢)**

وقوله :

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ } **(سورة المائدة / الآية : ٤١)**

(٤٦) سبق تخريجه .

وحديث أبى برزة أن النبي – صلي الله عليه وسلم – :

(يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته. (٤٧)

والدلالة على أنه عمل:

{وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدِّين حنفاء ويقيموا الصَّلاة ويؤتوا الزَّكاة وذلك دين القيِّمة }

(سورة البينة/ الآية :٥)

وقال :**{ فمن كان يرجو لقاء ربِّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً }**

(سورة الكهف/ الآية :١١٠)

وقال ربنا – سبحانه وتعالى – : **{هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملآئكة أو يأتي ربُّك أو يأتي بعض آيات ربِّك يوم يأتي بعض آيات ربِّك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنَّا منتظرون }**

(الأنعام /:١٥٨) (٤٨)

---

(٤٧) (صحيح) أبو داود فى سننه (كتاب) الأدب (باب) فى الغيبة – ج٢ – ص٦٨٦– برقم ٤٨٨٠ – وأحمد فى المسند – ج٢ – ص٤٢٠ – برقم ١٩٧٩١–وقد صححه الألبانى فى صحيح التغيب والترهيب – ج٢– ص ٢٩٢– برقم ٢٣٣٩ – وفى المشكاة ج٣ – ص ٩٣ – برقم ٥٠٤٤ .

(٤٨) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة/ أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائى– ج٤– ص ٨٣٠– ٨٣١ – دار طيبة – الرياض – ط ١ – ١٤٠٢هـ – تحقيق / د. أحمد سعد حمدان .

أن الذين يقولون أن الإيمان يعن التصديق أو يعن المعرفة أو يعنيهما معا ، أو يعني الإقرار يغفلون أو يتغافلون عن شئ فى غاية الأهمية وهو طبيعة هذا الدين ، هذا الدين الذى لا يعرف الأقوال والأفكار بقدر ما يعرف الكد والعمل والتعب ، ألم يقرأ هؤلاء قول الله – عز وجل – :

{يا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ }

(سورة الانشقاق/ الآية :٦)

وقوله – سبحانه–:

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ } **(سورة البلد / الآية :٤)**

إن الذين يخرجون العمل من الإيمان يغفلون عما عاناه النبى – صلى الله عليه وسلم – من أول لحظة بعث فيها هنالك فى غار حراء ثم رجوعه يرتجف إلى بيته ، ومعاناته فى كل مرة يأتيه جبريل – عليه السلام – فعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– أن الحارث بن هشام – رضي الله عنه– سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه.

قال : وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول .

قالت عائشة – رضي الله عنها– ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا .(٤٩)

ومنذ نزل عليه الوحى بدأت المعاناة ، وأمر بهجر الفراش الوثير ، والقيام بالإنذار، وقيام الليل، وتبليغ الناس كلمة الله ؛ فعاداه قومه ورموه عن قوس واحدة ، وعذبوا المؤمنين ، وحاصروه ماديا ومعنويا حتى بلغ الأذى قمته كما قال الإمام الزهري – رحمه الله –:

ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد واشتد عليهم البلاء ، وجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – علانية ، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شعبهم ، وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله ؛ فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله إيمانا ويقينا ، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأجمعوا على ذلك ؛ اجتمع المشركون من قريش فاجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للقتل .

(٤٩) متفق عليه : البخاري (كتاب) بدء الوحي (باب) كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله –ج١ – ص ٤– برقم ٢– ومسلم

(كتاب) الفضائل (باب) عرق النبى – صلى الله عليه وسلم – فى البرد وحين يأتيه الوحى – ج٤– ص١٨١٦– برقم ٢٣٣٣

وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودا ومواثيق : لا يقبلوا من بني هاشم صلحا أبدا ، ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل ، فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين ، واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركوا لهم طعاما يقدم مكة ولا بيعا إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد به مكرا واغتيالا له، فإذا نام الناس أمرا أحد بنيه أو إأخوته أو بني عمه فاضطجعوا على فراش رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه ، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن قصي ورجال من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم ، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه (٥٠)

حصار وتجويع ثلاث سنين ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وأخرجوه ومن آمن معه ، وحاربوه حتى دميت قدماه ، وكسرت ثنيته ، وغاص الحديد فى وجنته .

تلك هى طبيعة هذا الدين جهد جهيد وكد مديد ومعاناة لا تنقطع إلا مع انقطاع الأنفاس ، أبعد هذا يمكن أن يكون الإيمان الذى قتل لأجله الأنبياء ومن آمن معهم كلمات تقال أو تصورات تستكن فى القلب ؟ !!

(٥٠) البداية والنهاية / ابن كثير – ج٣ ص ٨٣– ٨٤ .

لو كان الإيمان كلمات أو تصورات فلماذا قرن الله – عز وجل– بين إرسال الرسل بالبينات

والميزان وبين إنزال الحديد ببأسه الشديد ومنافعه ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فى مقدمة كتابه السياسة الشرعية :

الحمد لله الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وأيده بالسلطان النصير الجامع معنى العلم والقلم للهداية والحجة ومعنى القدرة والسيف للنصرة والتعزيز . (٥١)

إنها طبيعة هذا الدين بطريقه الشائك الملئ بالعقبات والمعاطب التى تحتاج إلى الحديد

ببأسه الشديد .

أن أهم عناصر الإيمان التى يجب بحثها وعرضها وتركيز انتباه الناس إليها هو عنصر عمل القلب ؛ فهو صلب قضية الإيمان فى كل وقت وحين ، وحجر زاوية الدين الذى بعث الله به الأنبياء والمرسلين .

(٥١) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعي والرعية / لابن تيمية – ج١– ص ١١ – دار المعرفة – ط١ – ١٤١٢هـ .

إن قضية الرسل مع أقوامهم كانت دائما قضية والخضوع والانقياد والتسليم لله ورسله ، ولم تكن أبدا قضية المعرفة والتصديق مهما حاولوا طمس هذه الحقيقة والتشويش عليها تحت زعم تكذيب الأنبياء و الرسل ، وصدق الله حيث يقول :

{... فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }

(سورة الأنعام/ الآية :٣٣) (٥٢)

قال ابن باديس :

الدين كله عقد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح الظاهرة والباطنة، وكل واحد من الثلاثة يسمى إيمانا باعتبار ويسمى إسلاما باعتبار آخر : فعقد القلب يسمى إيمانا لأنه تصديق ، ويسمى إسلاما لأن عقد القلب على الشيء إذعان وخضوع له .

ونطق اللسان بالشهادتين يسمى إيمانا لأنه دليل على التصديق ، ويسمى إسلاما لأنه دليل على الخضوع والانقياد .

والزكاة مثلا تسمى إيمانا لأنها مبنية على التصديق وثمرة من ثمراته ، وتسمى إسلاما لأنها انقياد واذعان .

والحب في الله يسمى إيمانا لأنه مبنى على التصديق وثمرة من ثمراته ، ويسمى إسلاما لأنه انقياد واذعان .

والإيمان في الوضع الشرعي هو قول باللسان وعمل القلب وعمل الجوارح ، فمن استكمل ذلك استكمل الإيمان ، ومن لم يستكمله لم يستكمل الإيمان .

(٥٢) حقيقة الإيمان عند أهل الستة والجماعة / محمد عبد الهادي المصري – ص ٢٩ – دار الإعلام الدولي – ط٢ – ١٤١٣هـ ١٩٩٣م .

لقوله :

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }

(سورة الأنفال/ الآية :٢)

ولقوله :

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }

(سورة الحجرات/ الآية:١٥)

ولقوله – صلى الله عليه وسلم – :

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (٥٣)

ولقوله – صلى الله عليه وسلم – :

(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) (٥٤)

ويؤكد لنا أن العمل جزء من الإيمان قوله – تعالى– :

:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } **(سورة الأنفال/ الآية :٢)**

---

(٥٣) متفق عليه : البخاري (كتاب) الإيمان (باب) من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه – ج١ ص ١٤ – برقم ١٣ – ومسلم (كتاب) الإيمان (باب) الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه – ج١ ص ٦٧– برقم ٤٥ .

(٥٤) متفق عليه : البخاري (كتاب) الإيمان (باب) حب الرسول من الإيمان – ج١ ص ١٤– برقم ١٥ – مسلم (كتاب) الإيمان (باب) وجوب محبة رسول الله أكثر من المال والولد – ج١ ص ٦٧ – برقم ٤٤.

وقوله :

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...} **(سورة النور / الآية :٦٢)**

- وقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن . (٥٥)

وحديث وفد عبد القيس ، والذى فيه :

(أمرهم بالإيمان بالله وحده .

قال : أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟

قالوا الله ورسوله أعلم .

قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس .) (٥٦)

(٥٥) متفق عليه : البخاري (كتاب) المظالم (باب) النهبى بغير إذن صاحبه – ج٢ – ص ٨٧٥– برقم ٢٣٤٣– ومسلم (كتاب) الإيمان (باب) بيان نقص الإيمان بالمعاصي – ج١– ص ٧٦ – برقم ٥٧.

(٥٦) البخارى (كتاب) الإيمان (باب) تحريض النبى وفد عبد القيس أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم – ج١ – ص ٤٥– برقم ٨٧ .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – :

" لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له " (٥٧)

يقول ابن رجب رحمه الله – تعليقا على ذلك :

فلولا أن ترك هذه الكبائر من مسمي الإيمان لم انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شئ منها ؛ لأن الاسم لا ينتفي إلا بانتفاء بعض أركان المسمى أو واجباته . (٥٨)

– وقوله – صلى الله عليه وسلم – :

[الطهور شطر الإيمان .] (٥٩)

– وقوله – صلى الله عليه وسلم – :

من أعطى لله ومنع لله ، وأحب لله وأبغض لله ، وأنكح لله فقد استكمل الإيمان . (٦٠)

---

(٥٧) (حسن) رواه ابن أبى شيبة فى الإيمان رقم ٧ وأحمد فى المسند ج٣– ص ١٣٥واللالكائي ج٥– ص ٩٢٤ ورواه أيضا أبويعلى والبزار والطبرانى فى الأوسط كما فى مجمع الزوائد ج١ – ص ٩٦وقال الشيخ الألبانى فى حاشيته الإيمان لابن أبى شيبة حديث صحيح واسناده حسن – ص٥ .

(٥٨) جامع العلوم والحكم / أبو الفرج عبد الحمن بن أحمد بن رجب الحنبلى – ص٢٨ – دار المعرفة – بيروت – ط١ – ١٤٠٨هـ .

(٥٩) مسلم (كتاب) الطهارة (باب) فضل الوضوء ج١ ص ٢٠٣ – برقم ٢٢٣.

(٦٠) (حسن) رواه أحمد فى المسند ج٣ – ص ٤٤٠ وأبو داود فى السنة (باب) الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه – برقم ٤٦٨١ والترمذي فى صفة القيامة (باب٦) وقال : حديث حسن برقم ٢٥٢١ والمروزى فى تعظيم قدر الصلاة – ج ١– ص ٤٠٥ وغيرهم ، وقد حسه الألبانى – رحمه الله – انظر السلسلة ج١– ص ٧٢٨– برقم ٣٨٠ .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – :

الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة : فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان . (٦١)

وقبل ختام هذا المبحث أنقل لك هذا النص الثمين الذى يبين لك قيمة العمل وأهميته ، وكيف أن الناس يتفاوتون فى إيمانهم ، بل ويثبتون عليه بأعمالهم ، وهذا النص هو لأستاذ علم من أساتذة الأزهر العظماء ، ومن العلماء الأفذاذ الذين يعتز الأزهر بهم ،

إنه للشيخ العلامة الأستاذ / محمد عبدالله دراز (٦٢) – رحمه الله – وفيه يقول :

---

(٦١) رواه البخارى بدون شك وبلفظ: " بضع وستون " (كتاب) الإيمان (باب) أمور الإيمان – ج١ – ص ١٢– برقم ٩ و مسلم بصيغة الشك : " بضع وسبعون أو بضع وستون " (كتاب) الإيمان (باب) بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء – ج١ ص ٦٣– برقم ٣٥ .

(٦٢) هو محمد عبدالله دراز ولد بقرية محلة دياى بمحافظة كفر الشيخ سنة١٣١٢هـ – ١٨٩٤ م ، وحفظ القرآن صغيرا ، ثم انتقل إلى الأسكندرية عام ١٩٠٥م والتحق بالمعهد الديني بها ، وحصل على الشهادة الثانوية فيها سنة ١٩١٢م وعلى العالمية ١٩١٦م ، وتعلم اللغة الفرنسية بالمدارس الليلية وكان أول الناجحين فى شهادة القسم العالى منها سنة ١٩١٩م ، وعمل بالأزهر الشريف فى معاهده ثم بالكليات الأزهرية سنة ١٩٣٠م ، واختارته جامعة الأزهر مبعوثا إلى فرنسا للالتحاق بجامعة السربون فى باريس ففضى هنالك اثني عشر عاما من غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٥هـ إلى أخر ربيع الثانى سنة ١٣٦٧هـ ، وهناك حصل على رسالتين للدكتوراة : الأولى عنوانها " القرآن " والثانية دستور الأخلاق بالقرآن ، ثم رجع إلى مصر ١٩٤٨م وعمل محاضرا بالأزهر وبكلية الآداب جامعة القاهرة ، كما عمل باللجان العليا السياسية للتعليم وبالمجلس الأعلى للسياسة ، ومن آثاره العلمية باللغة الفرنسية والعربية :

وأما تفاوته من طريق ثمرته وهى العمل فبيته أن الفكرة النظرية التى تأخذ آثارها العملية تبقى ماثلة فى الوجدان لا تزاحمها الأضداد ، ولا يطغى عليها النسيان ؛ لأنها حاضرة غالبا فى مركز الفكر – أو كما يقول علماء النفس فى بؤرة الشعور – فهي تستمد من العمل بها قوة وثباتا واشراقا حتى تصبح للنفس ملكة وخلقا ، وكذلك يستمد منها العمل سهولة ويسرا عند العودة إليها مرة أخرى ، وهكذا كلما تكرر العمل بمقتضى تلك الفكرة ازدادت قوة فى نفسها واستعدادا لإنتاج أمثاله من الإعمال بدون تكلف ، وازداد العمل لصوقا بالنفس حتى يكون انتزاعه و مفارقته أشبه بانتزاع الغرائز ؛ ولذلك قيل " العادة طبيعة ثانية " وبعكس ذلك من كثر تهاونه بتطبيق العلم على العمل نقص من قوة علمه وثبات عقيدته بمقدار تهاونه بالعمل وتضييعه له .

فكذلك نقول : إن من اعتاد طاعة الله – تعالى – ازداد إيمانه ، ومن كثرت مخالفته لأوامر الله ضعف يقينه إلى حد ما ، فإن هو اعتاد ذلك لم يؤمن ثباته على الإيمان ، نعم المرآة قد تصدأ وتنجلي ، ولكنها إذا ما تراكم عليها الصدأ ولم تعالج بالجلاء آنا بعد آن لم تلبث أن يأكل الصدأ منها ذلك العنصر المضيء فيها، والمعاصي – لو تعلمون – هى الصدأ الذى يغشى وجه الإيمان وجلاؤها وهو التوبة والعمل الصالح فمن تركها بغير جلاء لم يأمن العاقبة فى دينه ....

مبادئ القانون الدولي العام فى الإسلام ، و الربا فى نظر القانون الإسلامى ، والأزهر الجامعة القديمة الحديثة ، والنبأ العظيم ، ونظرات فى الإسلام ، وقد كان – رحمه الله – عابدا قارئا للقرآن يقرأ سدسه فى كل يوم لا يترك ذلك أبدا ، وقد اختاره الله – تعالى – إلى جواره عشية يوم الاثنين السادس عشر من جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ السادس من شهر كانون الثاني ١٩٥٨م فرحمه الله رحمة واسعة وجعل الفردوس الأعلى مقره وداره . انظر مقدمة كتاب " المختار من كنوز السنة " ص ٦– ٩ .

فحوطوا إذن جوهرة إيمانكم بصوان من العمل ؛ فإن الجواهر النفيسة إذا جردت من أصدافها والأشياء الغضة إذا عريت من غلافها صارت عرضة للآفات والتقلبات ، وأوشكت أن تأخذها الحوادث .

وكذلك المصباح إذا لم تكن له زجاجة ، ولم يوضع فى مشكاة لعبت به الرياح يمنة ويسرة ، وربما عصفت به عاصفة فأطفأت نوره ، فاحفظوا مصباح إيمانكم فى مشكاة من تقوي المعاصى تدرأون بها عنه ريح الشيطان وعواصف الفتن :

{ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

(سورة النور/ الآية :٦٣)

وارفعوا على أساس الإيمان بنيانا من فعل الخيرات تزدادوا إيمانا إلى إيمانكم ونورا إلى نوركم :

{ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ }

(سورة محمد / الآية : ١٧) (٦٣)

(٦٣) المختار من كنوز السنة / د . محمد عبد الله دراز – ص ١٠٢ – ١٠٤ ط ٤ – خاصة بدولة قطر على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني .

المبحث الرابع

اختزال الدين فى معنى الديانة

كثيراً ما يتناول مفهوم الدين بمنطق قاصر، مختل ومخل بمفهوم الدين الشامل الكامل الذي أنزله الله على نبيه محمد . صلى الله عليه وسلم . ومن هذا الخلل والقصور قصر مفهوم" الدين" على الشعائر أو العبادات .. أو قصره على المعتقدات .. أو فصله عن الحياة .. وعزله عن بعض أصوله مثل الذين يرفعون شعار : لا سياسية في الدين ولا دين في السياسة .. واخوانهم الذين يقولون: لا اقتصاد في الدين ولا دين فى الاقتصاد ، وأدهى من ذلك وأمر الذين جاءوا من بعدهم يقولون : ما علاقة الدين بالتربية ومناهج التعليم الدراسية ، ولسان حالهم : لا تربية فى الدين ولا دين فى التربية ، وهكذا يستمر سرطان العلمانية يلتهم جسم الدين حتى ينحيه عن الحياة جانبا ؛ فتغدو الحياة بلا دين ، وليصنع كل واحد ما يشاء بلا ضابط أو رابط .

وحتى نقف على المفهوم الصحيح الشامل الكامل للدين نطوف تطوافا عاجلا على المعاجم اللغوية ففيها الغنى والكفاية .

تحدثنا المعاجم اللغوية العربية عن معني الدين فتقول :

(دين) : الدَّيانُ : من أسماء الله – عز وجل – معناه الحكَم القاضي ، وسئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب – عليه السلام – فقال : كان ديّان هذه الأُمة بعد نبيها ، أي : قاضيها وحاكمها .

و الدَّيَّانُ : القهّار ، ومنه قول ذي الإصبع العدواني :

لاه ابنُ عمِّك لا أَفضَلْتَ في حسبٍ فينا ولا أَنتَ ديَّاني فتَخْزوني

أيَ : لست بقاهر لي فتسوس أمري .

و الدَّيان : الله – عز وجل – .

و الدَّيَّانُ : القهَّار وقيل : الحاكم والقاضي ، وهو فعَّال من دان النّاس أي : قَهرهم على الطاعة . يقال : دنتُهم فدانوا أي قَهرتُهم فأَطاعوا ، ومنه شعر الأَعشر الحرماني يخاطب سيدنا رسولاً :

يا سيِّد الناسِ وديَّان العربْ ، وفي حديث أَبي طالب : قال له – عليه السلام – :أُريد من قريش كلمة تَدين لهم بها العرب ، أي : تطيعهم وتخضع لهم . (٦٤)

وفى القاموس المحيط :

والدِّين بالكسر : الجزاء ، وقد دنْتُه بالكسر ديناً ويكْسر ، والإسْلام ، وقد دنْتُ به بالكسر العادةُ والعبادةُ ، والمواظبُ من الأَمطارِ أو اللَّيِّن منها ، والطاعة والذُّلُّ والدَّاء والحساب والقهر والغلبةُ والاستعلاء والسُّلطان والملْك والحكْم والسِّيرة والتَّدبير والتَّوحيد ، واسم لجميع ما يتعبَّد الله – عزَّ وجلَّ – به ،

(٦٤) لسان العرب/ ابن منظور – ج١٣– ص ١٦٤ .

والمِلَّةُ والوَرَعُ والمَعْصِيَةُ والإكْرَاهُ و من الأَمْطَارِ : ما يُعاهِدُ مَوْضِعاً فصار ذلك له عادة ، والحالُ والقضاء . ودِنْتُه أدينُه : خدمته وأحسنتُ إليه ومَلَكْتُه ، ومنه : المدينةُ للمصرِ ، والدَّيَّان : القَهَّار والقاضي والحاكم والسَّائس والحاسِب والمجازي الذي لا يضيِّعُ عملاً بل يجزي بالخيرِ والشَّرِّ . والمدينُ : العَبْدُ وبهاء : الأَمَةُ لأَنَّ العملَ أذَلَّهما ، وفي الحديث :" كان النبيُّ على دينِ قَومِه " أي : على ما بَقِي فيهم من إرثِ إبراهيم وإسماعيلَ – عليهما السلام– في حَجِّهم ومناكَحتِهم وبيوعِهِم وأساليبِهم ، وأمَّا التَّوحيدُ فإنهم كانوا قد بدَّلُوه ، والنبي لم يكن إلا عليه . ودان يدين : عَزَّ وذَلَّ ، وأطاع وعصى ، واعتادَ خيراً أو شراً ، وأصابه الدَّاء و فلاناً : حمَلَه على ما يكره وأذَلَّه . ودَيَّنَه تديينا : وكَلَه إلى دينه . (٦٥)

وعلى هذا فالدين فى اللغة يطلق على عدة معان :

الأول : الملك والسلطان، كما في قوله – تعالى– :

(ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) **(سورة يوسف/ الآية :٧٦)**

أي : في ملكه وسلطانه.

الثاني : الطريقة والعقيدة ، كما في قوله تعالى:

(لكم دينكم ولي دين) **(سورة الكافرون/ الآية : ٦)**

(٦٥) القاموس المحيط / محمد بن يعقوب الفيروز آبادي – ج١ ص ١٥٤٦ .

الثالث: الحكم ، كما في قوله – تعالى – :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)

(الأنفال/ الآية :٣٩)

وهذا المعنى من معاني الدين هو المعنى الذى وقعت فيه الخصومة بين أنصار الدين وأنصار العلمانية الذين يحرصون بكل وسيلة على إبعاد الدين عن كل مجالات الحياة : سياستها واقتصادها واجتماعاتها وتعليمها ومعاملاتها ، وهى فتنة عظيمة كما تصرح الآيات بذلك .

وحول الآية السابقة من سورة الأنفال يقول صاحب الظلال – رحمه الله :

إن الذي يعنيه هذا النص (ويكون الدين كله لله) هو إزالة الحواجز المادية المتمثلة في سلطان الطواغيت وفي الأوضاع القاهرة للأفراد ، فلا يكون هناك حينئذ سلطان في الأرض لغير الله ، ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان الله ، فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفراداً يختارون عقيدتهم أحراراً من كل ضغط ، على ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام في تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين ويحول بها دون اهتداء من يرغبون في الهدى ، ويفتن بها الذين يتحررون فعلا من كل سلطان إلا سلطان الله .

إن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفراداً فلا يكونون سلطة قاهرة يدين لها العباد ، فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد .

ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها الله ، ولن يتحرر الإنسان في الأرض إلا حين يكون الدين كله لله ، فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه ؛ ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له قبل منه المسلمون إعلانه هذا واستسلامه ، ولم يفتشوا عن نيته وما يخفي صدره ، وتركوا هذا لله .

(**فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير**) ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان الله قاتله المسلمون معتمدين على نصرة الله .

(وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير)

هذه تكاليف هذا الدين ؛ وهذه هي جديته وواقعيته وايجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاته

في عالم الواقع ؛ ولتقرير ألوهية الله وحده في دنيا الناس ، إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة ، وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى ، كما أنه ليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه ، إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان ، وهو منهج حركي واقعي يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة ، يواجه حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان ، ويواجه حواجز الأوضاع والسلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان الله ، والحركة بهذا الدين حركة في واقع بشري ، والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابل بنظرية ؛

إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع سلطة ، ولا بد كي يقابلها هذا الدين بوسائل مكافئة أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة ، ولا بد بعد ذلك أن يجاهد ليكون الدين كله لله فلا تكون هناك دينونة لسواه ، هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي

الدين لا ما يقوله المهزومون والمخدوعون ، ولو كانوا من المخلصين الطيبين الذين يريدون أن يكونوا من المسلمين ولكن تغيم في عقولهم وفي قلوبهم صورة هذا الدين . (٦٦)

وخلاصة ما سبق أنه ينبغى أن يكون الدين هو المسيطر المهيمن على حياتنا منه ننطلق ، ومنه نبدأ ، وبه نعطي وبه نمنع ، وبه نأخذ وبه نعطي ، وبه نحل وبه نحرم ، وبه نحكم واليه نحتكم ، ولقد كان من نتيجة الفهم القاصر للدين أن العالم الإسلامى استيقظ يوما على أصوت نشاز لبعض المستشرقين المتعصبين ومن يردد كلامهم ويحذو حذوهم وهم يقولون : إنه لا علاقة بالدين والحكم ، وما كانت دعوة النبى محمد – صلى الله عليه وسلم – إلا دعوة روحية خالصة لا علاقة لها بالملك والسياسة ، ومن هؤلاء الشيخ علي عبد الرازق الذى قام فينا خطيبا فقال : إن محمدا – صلى الله عليه وسلم – ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك، ولا دعوة لدولة.

(٦٦) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج ٣ – ص ١٥٠٩ – ١٥١٠ .

وأنه لم يكن للنبي – صلى الله عليه وسلم – ملك ولا حكومة، وأنه – صلى الله عليه وسلم – لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها ، ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكا، ولا مؤسس دولة، ولا داعيا إلى ملك» (٦٧)

واذا كان الشيخ قد استخدم هنا مصطلح الملك وكرره.

وهو مصطلح غير مناسب لوظيفة النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا لطبيعة الدولة الإسلامية، لينفر الخلق من مبدأ: «الإسلام دين ودولة»، فإنه في المقابل حاول أن يغريهم أو يغرر بهم بهذا التزيين الزائف:

«ولاية الرسول على قومه ولاية روحية، منشؤها، إيمان القلب وخضوعه خضوعا صادقا تاما يتبعه خضوع الجسم، وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد إخضاع الجسم من غير أن يكون لها بالقلوب اتصال، تلك ولاية هداية إلى الله وارشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمارة الأرض، تلك للدين وهذه للدنيا، تلك لله وهذه للناس، تلك زعامة دينية وهذه زعامة سياسية، ويا بعد ما بين السياسة والدين» (٦٨).

ومما قاله أيضا :

«الإسلام دعوة دينية إلى الله – تعالى –، ومذهب من مذاهب الإصلاح لهذا النوع البشري، وهدايته إلى ما يدنيه من الله – جل شأنه–، ويفتح له سبيل السعادة الأبدية، التي أعدها الله لعباده الصالحين، هو وحدة دينيه أراد الله – جل شأنه – أن يربط بها البشر أجمعين ، وأن يحيط بها أقطار الأرض كلها، تلك

---

(٦٧) الإسلام وأصول الحكم / للشيخ على عبد الرازق – ص١٣٦ – دار مكتبة الحياة بيروت– تعليق د. ممدوح حقي .

(٦٨) السابق (ص١٤١).

دعوة قدسية طاهرة لهذا العالم أحمره وأسوده أن يعتصموا بحبل الله الواحد ، وأن يكونوا أمة واحدة، يعبدون إلها واحدا ويكونون في عبادته إخوانا، تلك دعوة إلى المثل الأعلى لسلام هذا العالم» (٦٩).

وأته لكلام خادع ماكر رخيص يجعل الإسلام دينا لا دولة ، بل ويجعل المسافة بين الدين والحكم أبعد مما بين المشرق والمغرب .

وقد سار على درب على عبد الرازق سائرون كثيرون واستمع لواحد منهم وهو يقول :

يري أعداؤنا أن الفصل مستحيل ، وأن الخلط فريضة دينية، وأن الإسلام دين ودولة، وأن من يقبل الدين ويرفض الدولة إنما ينكر معلوما من الدين بالضرورة، يقصدون بالمعلوم من الدين (تنظيمه) في زعمهم لأمور الحكم وشئون السياسة، وهم في ادعائهم لا يقيمون الحجة ولا يفحمون، بل هم في كل واد يهيمون، فهم يحيلونك إلى القرآن، فإن ذكرت أنه لا ينطق بلسان ، وأنه لم يتناول أسلوب اختيار الحاكم أو طبيعة نظام الحكم ببيان أحالوك للشورى، فإن سألت عن كنهها في تفسيرهم ، وعن مدى إلزامها للحاكم اختلفوا عليك وتنازعوا إلا على تكفيرك وأحالوك إلى السنة، فإن ذكرت أن عهد الرسول مرتبط به، وأنه لا يقوم حجة على اللاحقين؛ فأين هو الحاكم الذي لا ينطق عن الهوى والذي يوحي إليه بما يفصل ؟

(٦٩) السابق (ص١٥١).

قذفوا بك إلى حكم الراشدين، فإن ناقشت أو جادلت أو حللت هاجوا وماجوا وادعوا أنك دخلت المناطق المحرمة ، فإن واجهتهم بالمنطق تمنطقوا بإلغاء العقل، وان واجهتهم بأخطاء الصحابة استعاذ البعض ، وأعلن البعض الآخر أن أخطاء المسلمين ليست حجة على الإسلام، وهو قول مقبول ، لكن من قال أننا نتعرض للإسلام؟

الإسلام في القلب والعقل معا، لكنا نحتج على دعوتهم للحكم بالإسلام وهو شيء جد مختلف . (٧٠)

إنها العلمانية التى تحارب الدين أنى وجد ، وتعمل بكل ما تملك لتنحيه عن الحياة ، وانها المكابرة التى لا تقوم على حجة ولا برهان ، وانني أحيل هؤلاء إلى القرآن وآياته البينات ، فأين هم من قول الله – عز وجل :

{ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون } (سورة الشورى/ الآية :٣٨)

وقول الله – عز وجل– :

{يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا } (سورة النساء/ الآية :٥٩)

وقول الله – تعالى –:

{ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم } (سورة المائدة/ الآية: ٤٨)

---

(٧٠) حوار حول العلمانية / د فرج فودة – ص١٥– دار ومطابع المستقبل بالفجالة، مصر والمعارف بيروت.

وقوله – تعالى- في الآية بعدها تأكيدا :

{وأنِ احكُم بينهم بما أنْزَلَ اللّه ولا تتّبِعْ أهواءهم واحذَرهم أنْ يفتِنوك عنْ بعضِ ما أنْزَلَ اللّهُ إليْكَ } (سورة المائدة/ الآية :٤٩)

وقوله بعد ذلك:

{أفَحُكْمَ الْجاهليّة يبغون ومنْ أحسنُ منَ اللّه حكْمًا لقوْمٍ يوقِنُون }

(سورة المائدة/ الآية :٥٠)

وقوله – تعالى – من سورة النساء:

{ إنّا أنْزَلْنا إليْكَ الْكتابَ بالْحقّ لتحكُمَ بينَ النّاسِ بما أراكَ اللّهُ }

(سورة النساء / الآية :١٠٥)

ومن العجيب حقا أن ترى جمعا من المستشرقين يفهمون أن الإسلام دين ودولة في حين ترى بعض أذنابهم ممن تربوا على موائدهم ، ورضعوا من ثديهم ينكرون ذلك ، وينفون علاقة الدين بالدولة ، فهذا توماس أرنولد المستشرق الشهير يصرح بأن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان « رئيسا للدين رئيسا للدولة» (٧١)

ويقول الأستاذ: جب: «عندما صار واضحا أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين في الحكم وله قوانينه وأنظمته الخاصة به» (٧٢)

(٧١) انظر: من فقه الدولة في الإسلام / د. يوسف القرضاوي- ص٢٨- دار الشروق ط، الخامسة ٢٠٠٧،

(٧٢) السابق – ص٢٨ .

ويقول الدكتور فتزجرالد: «ليس الإسلام دينا فحسب ، ولكنه نظام سياسي أيضا، وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض أفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم عصريون يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين، فإن صرح التفكير الإسلامي كله قد بني على أساس أن الجانبين متلازمان لا يمكن أن يفصل أحدهما عن الآخر» (٧٣)

وغيرهم وغيرهم من أمثال: شاخت دينلليونو وستروثمان وماكدونالد جميعهم أكدوا أن الإسلام دين ودولة، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أسس دينا ودولة، وأن الإسلام يشتمل على النظام السياسي والنظريات السياسية والقانونية» (٧٤)

ومن هنا يبين لكل مسلم بما لا يدع مجالا للشك أن مفهوم الدين يشمل الحكم ، وأن الإسلام دين ودولة . وهذا المعنى من أهم معاني الدين ؛ إذ ما أنزل الله الدين إلا ليحكم به في الأرض ، وليحكم بين الناس، ولتحقيق غاية العبودية لله والاستخلاف له، قال – تعالى –:

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) **(سورة الذاريات/الآية: ٥٦)**

وقال: (إني جاعل في الأرض خليفة) **(سورة البقرة/ الآية :٣٠)**

وقال ربنا – سبحانه وتعالى – :

(يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق)

وقال: (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس) [البقرة/٢١٣/].

(٧٣) النظريات السياسية الإسلامية د. محمد ضياء الدين الريس – ص٢٩.

(٧٤) انظر / من فقه الدولة الإسلامية – ص٢٧–٢٨ ونظام الحكم في الإسلام – ص١٩.

الرابع: أصول الدين وعقائده التي ارتضاها الله لعباده، كما في قوله – تعالى – :

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) **(سورة الشورى/ ١٣)**

الخامس : الذل والخضوع، يقال :دان لفلان أي خضع له وذل ، قال ابن تيمية: "ولذا قيل دان لله فهو كقولك ذل لله وخشع لله". (٧٥)

وقال المناوي: "الدين هو الخضوع". (٧٦)

فمن يدين بالدين فإنه يخضع لربه ويتذلل له ، وينقاد له، في جميع أحوال الدنيا والآخرة ، وهذا من العبادة التى هى غاية الحب مع غاية الذل .

السادس : الجزاء، كما في قوله – (مالك يوم الدين) (سورة الفاتحة الآية :٤) أي : الجزاء ، وجاء في لسان العرب: "والدِّين: الجزاء والمكافأة. ودِنته بفعله دِيناً: جزيته " (٧٧)

وقوله تعالى:

(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) (سورة الروم / الآية :٣٠)

قال ابن منظور:

" أي ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوي" (٧٨)

(٧٥) قاعدة فى المحبة / ابن تيمية – ص ٣٣.

(٧٦) فيض القدير / للمناوى – ج٥ – ص٤٥٥– المكتبة التجارية الكبرى – ط١– ١٣٥٦هـ.

(٧٧) لسان العرب / ابن منظور – ج١٣– ص ١٦٤.

(٧٨) السابق – ج١٣– ص ١٦٤ .

قال ابن عباس و مجاهد : على خلق : دين عظيم من الأديان ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه . (٧٩)

ويؤكد ذلك حديث النبي . صلى الله عليه وسلم . :

" الرجل على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل" (٨٠)

قوله: (الرجل) يعني الإنسان .

(على دين خليله) أي على عادة صاحبه وطريقته وسيرته .

(فلينظر) أي : فليتأمل وليتدبر .

(من يخالل) :

من المخاللة وهي المصادقة والإخاء ، فمن رضي دينه وخلقه خالله ، ومن لا تجنبه فإن الطباع سراقة ، والصحبة مؤثرة في إصلاح الحال وافساده .

قال الغزالي :

مجالسة الحريص ومخالطته : تحرك الحرص ومجالسة الزاهد ومخاللته تزهد في الدنيا ؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء ، بل الطبع من حيث لا يدري . (٨١)

---

(٧٩) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبى / ج١٨- ص ١٩٥ .

(٨٠) حسن . رواه أبو داود - ج٢- ص٦٧٥ ، والترمذي ج٤- ص ٥٨٩) وأحمدج٣- ص٣٠٣ وفي روايته : " المرء" بدلاً من " الرجل" ، وكذلك الحاكم في المستدرك ج٤- ص ١٨٨ وحسنه الألباني في الجامع الصغير وزياداته (٥٨٦) وفي السلسة الصحيحة (٥٩٧) .

(٨١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى / محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى - ج٧- ص ٤٢- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١- ١٤١٢هـ .

ومن هنا فليس ذا دين ذلك الصوام القوام المحافظ على الصف الأول فى صلاة الجماعة

مع أكله حقوق الناس وسبه لهذا وشتمه لهذا ونظره لهذه وتتبعه عورات هذا ؛ فالدين حسن الخلق ، وهذا يعنى أن من زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الدين ، ومن قل عنك فى الخلق قل عنك فى الدين ، لأقول هذا لأننا نري فى دنيا الناس اليوم من يلبس خلعة الدين ، ويروق منطقه العذب السامعين ، ويشنف ببلاغته ولسنه آذانهم ، ويأخذ حديثه بمجامع قلوبهم ، ويحسبه الناس على الملتزمين ؛ فهو يلبس مسوحهم ويتحدث حديثهم ويمشى معهم ، ولكنه لا يفعل فعالهم ، بل يخالف الناس إلى ما ينهاهم عنه ، ويغشى ميادين السوء فيكون صورة سيئة للالتزام وأهله ، ومن خلاله يحكم الناس على جميع الملتزمين بالسوء ، ويرمونهم بالقبائح ، ويصمونهم بالعيوب ، وقد يصل الأمر إلى اختلاق الأكاذيب ونسبتها إليهم بسبب هذا الذى ليس له من الالتزام إلا اسمه ورسمه ، إن هذا لشئ عجاب !!

ولن كان يحفظ القرآن أو شيئا يسيرا منه فإنه ينسلخ من آياته ، ويخالف أوامره ، ويقترف نواهيه ، فمثله كمثل الذى قال الله – سبحانه – عنه :

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ }

(سورة الأعراف/ الآية :١٧٥)

التاسع : الطاعة والحب .

قال ابن تيمية: فإذا قيل دان الله فهو قولك أطاع الله وأحبه ، وإذا قيل دان لله فهو كقولك ذل لله وخشع لله ، وقد ذكرت أن اسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل ، وهكذا الدين فإذا قيل دان الله فهو قولك أطاع الله وأحبه (٨٢)

وقال أيضا :

والدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خلقا ، وبذلك يكون المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله ، وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله ، كما قال النبي في الحديث المتفق عليه : " من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصاني فقد عصي الله ، ومن عصي أميري فقد عصاني . (٨٣) (٨٤)

وقال ابن منظور . في لسان العرب . :

وقد دِنْتُه ودِنْتُ له أطعته ، قال عمرو بن كلثوم:

وأياماً لنا غُرّاً كِراماً عَصَينا المَلْكَ فيها أن نَدينا (٨٥)

---

(٨٢) قاعدة فى المحبة / ابن تيمية – ص ٣٣ .

(٨٣) متفق عليه : البخاري (كتاب) الأحكام (باب) قول الله :" أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " ج٦ – ص ٢٦١١– برقم ٦٧١٨ – ومسلم (كتاب) الإمارة (باب) وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية – ج٣– ص ١٤٦٦– برقم ١٨٣٥.

(٨٤) قاعدة فى المحبة / ابن تيمية – ص ٣٧.

(٨٥) لسان العرب – ابن منظور – ج ١٣ – ص ١٦٤.

وهذا يعني أن من يدين بدين فإنه يطيع من أنزله ويستجيب لأمره ولا يخالفه ، فإن لم يفعل كان كاذبا فى دعوى انتمائه لهذا الدين .

العاشر : الدين العادة

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : وكذلك يفسر بالعادة، كما قال الشاعر : أهذا دينه أبدا وديني، ومنه الديدن يقال : هذا ديدنه أي عادته اللازمة فإن ديدن من دان بمنزلة . (٨٦)

وقال ابن منظور ـ في لسان العرب ـ : "والدِّين: العادة والشأْن، تقول العرب: ما زالَ ذلك ديني ودَيْدَني أَي عادتي ، قال المُثَقِّب العبدي يذكر ناقته : تقولُ إِذا دَرَأْتُ لها وَضِينِي: أَهذا دِينُه أَبَداً ودِيني

ورُوِي قولـه: دِين هذا القلب من نُعْمٍ ، يريد يا دِينَه أَي يا عادته". (٨٧)

وهذا معناه أن صاحب الدين قد اعتاد الطاعة ، والتزم بأمر الله حيثما كان : أمام الناس وبعيدا عن أعينهم ،ليلا ونهارا ،سرا وجهارا ، غنيا وفقيرا ، صحيحا ومريضا ، كبيرا وصغيرا ، فهو ذو دين على كل حال ، وفى كل مكان ، لم يعد شئ من الطاعة شاقا عليه ، بل لا يتكلف شيئا ، وانما يفعل الخير طبعا وعفو الخاطر ؛ لأنه أصبح عادة له .

(٨٦) قاعدة فى المحبة / ابن تيمية – ص ٣٢ .

(٨٧) لسان العرب / ابن منظور – ج١٣– ص١٦٤.

الحادي عشر : التعاهد والتعاقد.

لقول النبي . صلى الله عليه وسلم . في الحديث الذي رواه أنس بن مالك : "لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له" (٨٨)

ومعنى ذلك أن من يدين بالدين؛ فإنه يتعاقد ويتعاهد مع الله .. ولا شك أن أصل هذا العقد مبني على تحقيق العبودية لله في الأرض في أنظمة الحياة ، والدين الحق هو الوفاء بالعهد مع الله وعدم نقض الميثاق معه ، أما من لا دين له فلا وفاء له ، كما قال الله – عز وجل – :

{ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ{١٩} الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ{٢٠} وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ{٢١} وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ{٢٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ{٢٣} سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ{٢٤} وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ{٢٥}

(سورة الرعد / الآيات من : ١٩ – ٢٥)

---

(٨٨) صحيح . رواه أحمد ج ٣– ص ١٣٥ وابن خزيمة في صحيحه ج ٤– ص٥١ وابن حبان ج ١– ص ٤٢٢ والطبراني في المعجم الكبير ج ٨– ص ١٩٥ وفي الأوسط ج٢– ص ٣٨٣ وفي الصغير ج١– ص ١١٣)،وأبو يعلى ج٥ – ص ٢٤٦ وابن أبي شيبة ج٦– ص ١٥٩ و البيهقي في شعب الإيمان ج٤– ص ٧٨ وفي السنن الكبربج٤– ص ٩٧ – وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، حديث رقم (١٣١٣٥)، ص ١٣١٤،وحسنه الأرنؤوط في أحكامه على مسند أحمد .

الثانى عشر : الدين يعني المصدر:

ورد ذلك في بعض المعاجم العربية :

فقد قال صاحب تاج العروس . في بعض معاني الدين . : قيل الدين المصدر. (٨٩)

وبالمثل قال ابن منظور في لسان العرب: "وقيل الدِّينُ المصدر". (٩٠) وهذا من المعاني الحسنة ، بل هو معنى من أهم معاني الدين . إذ الدين هو مصدر الأحكام والقوانين والتشريعات، كما أنه مصدر السعادة والنهضة والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ، كما قال ربنا :

{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم }

(النساء /: ٦٥)

أن مما يجب أن يربى المسلم عليه ألا يتلقى إلا من الله ، ألا يكون مصدر كل شئ إلا الوحي قرآنا وسنة ، وبذلك أمر ربنا :

{ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } **(سورة الزمر/ الآية : ٥٥)**

وقال ربنا – عز وجل – :

{ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{٢} اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ{٣}

(سورة الأعراف / ٢ – ٣)

---

(٨٩) تاج العروس / للزبيدى – باب الدال – ص ٨٠٣٩.

(٩٠) لسان العرب / ابن منظور – ج١٣– ص ١٦٤.

(وفي الوقت الذي وجه الله -سبحانه- هذا التكليف إلى رسوله وجه إلى قومه المخاطبين بهذا القرآن أول مرة والى كل قوم يواجههم الإسلام ليخرجهم من الجاهلية الأمر باتباع ما أنزل في هذا الكتاب والنهي عن اتباع الأولياء من دون الله ؛ ذلك أن القضية في صميمها هي قضية الاتباع : من يتبع البشر في حياتهم : يتبعون أمر الله فهم مسلمون ، أم يتبعون أمر غيره فهم مشركون ؟

إنهما موقفان مختلفان لا يجتمعان (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) هذه هي قضية هذا الدين الأساسية : إنه إما اتباع لما أنزل الله فهو الإسلام لله ، والاعتراف له بالربوبية وافراده بالحاكمية التي تأمر فتطاع ويتبع أمرها ونهيها دون سواه ، واما اتباع للأولياء من دونه فهو الشرك ، وهو رفض الاعتراف لله بالربوبية الخالصة ، وكيف والحاكمية ليست خالصة له سبحانه ؟

وفي الخطاب للرسول – صلى الله عليه وسلم – كأن الكتاب منزلاً إليه بشخصه كتاب " أنزل إليك " وفي الخطاب للبشر كان الكتاب كذلك منزلاً إليهم من ربهم " اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم " فأما الرسول – صلى الله عليه وسلم – فالكتاب منزل إليه ليؤمن به ولينذر ويذكر ، وأما البشر فالكتاب منزل إليهم من ربهم ليؤمنوا به ويتبعوه ولا يتبعوا أمر أحد غيره ، والإسناد في كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم والتحضيض و الاستجاشة فالذي ينزل له ربه كتاباً ويختاره لهذا الأمر ويتفضل عليه بهذا الخير جدير بأن يتذكر وأن يشكر ؛ وأن يأخذ الأمر بقوة ولا يستحسر . (٩١)

(٩١) فى ظلال القرآن / سيد قطب – ج ٣ – ص ١٢٥٩.

. والدين يعني العقيدة والإيمان:

قال صاحب التحرير والتنوير: " والدين هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة ، فهو عنوان عقل المتدين ، ورائد أماله ، وباعث أعماله ، فالذي يتخذ دين امرئ هزؤا فقد اتخذ ذلك المتدين هزؤا ورمقه بعين الاحتقار ؛ إذ عد أعظم شيء عنده سخرية فما دون ذلك أولى . (٩٢)

وقال الخلال: "الدين هو التصديق وهو الإيمان والعمل ، فوصف الله – عز وجل – الدين قولا وعملا فقال :

{فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }

(سورة التوبة /الآية :١١)

والتوبة من الشرك وهو من الإيمان والصلاة والزكاة عمل. (٩٣)

وهكذا فمن معاني الدين : تلك العقيدة السامية التي أمر الله عباده أن يعتنقوها ، وذلك الإيمان الذي فطر الله الناس عليه.

(٩٢) التحرير والتنوير / ابن عطية – ج١ ص ١١٥٧ .

(٩٣) السنة / للخلال – ج٣ – ص ٥٨٦ .

وفى النهاية فالدين هو كل هذه المعاني !

نعم .. الدين يعني الإسلام والإيمان والعقيدة .. ويعني الأخلاق والعادات .. ويعني الحكم والقضاء والسلطان .. ويعني المصدر والشريعة .. ويعني الطاعة والحب والخضوع والانقياد لله .. ويعني الحساب والجزاء والمكافأة يوم القيمة .. ويعني التعاقد والتعاهد مع الله على تحقيق العبودية والاستخلاف ، وعلى هذا فالدين الإسلامي أرفع من أن يحصر في زاوية ضيقة ، أو يعزل عن مجالات الحياة بزعم أن الدين لا يدخل فيها . . يقول الزرقاني . رحمه الله . في ذلك . :

" ليعلم من لم يكن يعلم أن هذا الدين هو حاجة الإنسانية ، ودواء البشرية ، وكمال الفرد ، وصلاح الجماعة، ولتنقطع أنفاس تلك الدعاية الضالة : دعاية فصل الدين عن السياسة، والثقافة الدينية عن الثقافة المدنية، وقوانين العدل ودساتير الحكم عن مقررات العقيدة وشعائر العبادة ، وهي أخبث الدعوات وأفسقها فيما نعلم. (٩٤)

(٩٤) مناهل العرفان / محمد عبد الرحيم الزرقاني – ج١ – ص ٤ .

المبحث الخامس

القصور والخطأ في مفهوم التوكل .

ومن صوره :

١- ترك الأخذ بالأسباب

٢- التوكل على الأسباب وحدها

٣- ترك علو الهمة في التوكل

واليك البيان والتفصيل :

مفهوم التوكل

التوكل من عبادات القلب كالإخلاص والحب والخوف والرجاء وغيرها ، ومفهوم التوكل مفهوم واسع فضفاض ؛ ولذلك اختلفت أقوال أهل العلم فيه : فمنهم من فسره بحقيقته ، ومنهم من فسره بثمرته ونتيجته ،ومنهم من يفسر جانبا منه ويغفل جوانب أخرى ، وقد ضل أقوام فى باب التوكل ورأوه على غير حقيقته ، وفسروه على هواهم بعيدا عن هدي الشريعة ونورها الوضاء ، وسوف أنقل بعض أقوال أهل العلم فى التوكل ، ثم أثني بذكر بعض الأخطاء التى نالت ذلك المفهوم ونرد عليها

أولا : مجموعة من أقوال أهل العلم فى التوكل :

قال الإمام أحمد :

التوكل عمل القلب ، ومعنى ذلك : أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ، ولا عمل الجوارح ، ولا هو من باب العلوم والإدراكات .

ومن الناس : من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب للعبد .

ومنهم من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، وهو ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الأقدار

قال سهل : التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد .

ومنهم من يفسره بالرضي فيقول : هو الرضى بالمقدور .

قال بشر الحافي : يقول أحدهم : توكلت على الله يكذب على الله لو توكل على الله رضي بما يفعل الله .

وسئل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلا ؟

فقال : إذا رضي بالله وكيلا .

ومنهم من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه ، قال ابن عطاء : التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها .

قال ذو النون :

هو ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة ، وانما يقوي العبد على التوكل إذا علم أن الحق – سبحانه– يعلم ويرى ما هو فيه . وقال بعضهم : التوكل التعلق بالله في كل حال وقيل : التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات فلا تسمو إلا إلى من إليه الكفايات (٩٥)

وقال سرى السقطي : التوكل الانخلاع من الحول والقوة .

وقال ابن مسروق : التوكل الاستسلام لجريان القضاء فى الأحكام .

قال سهل : التوكل الاسترسال بين يدي الله تعالى .

قال أبو عبد الله القرشي : التوكل ترك الإيواء إلا إلى الله.

قال أبو أيوب : التوكل طرح البدن فى العبودية : وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية .

(٩٥) مدارج السالكين / ابن القيم – ج٢ – ص ١١٤ .

قال الجنيد :

حقيقة التوكل أن يكون لله – تعالى– كما لم يكن فيكون الله له كما لم يزل .

وقال بعضهم التوكل سر بين العبد وبين الله . (٩٦)

ويمكن أن نعرف التوكل فنقول :

التوكل اعتماد القلب على الله ، وقطع العلائق عما سواه مع الأخذ بالأسباب .

بمعنى ألا يركن القلب إلى أحد سوى الله فى جلب ما يرجو ودفع ما يخاف .

قال ابن رجب :

وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله – عز وجل – في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة . (٩٧)

والتوكل صفة المؤمنين ، كما قال ربنا – جل وعلا – :

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }

(سورة الأنفال / الآية :٢)

أي : يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين إليه أمورهم فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يرغبون إلا إليه ، يعلمون أن ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده ، والمعبود وحده لا شريك له ،

---

(٩٦) التعرف لمذهب التصوف / محمد الكلاباذى أبو بكر/ ص ١٠٠– ١٠١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٠٠هـ .

(٩٧) جامع العلوم والحكم / ابن رجب الحنبلي – ج١ – ص ٤٣٦

وفي الآية وصف المؤمنين حقا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي :

١- الخوف .

٢- زيادة الإيمان .

٣- والتوكل على الله وحده .

وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان ، وحصول أعماله الباطنة والظاهرة ، مثال ذلك الصلاة ، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها ، وأدى الزكاة كما أمره الله استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات ، وترك جميع المحرمات ، كما قال - تعالى-:

{ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ } **(العنكبوت /٤٥)** **(٩٨)**

وقال ربنا - جل وعلا - آمرا نبيه - صلى الله عليه وسلم بالتوكل :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{١} وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{٢} وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً{٣}

(سورة الأحزاب / الآيات من :١-٣)

---

(٩٨) فتح المجيد / عبد الرحمن حسن آل الشيخ - ج١- ص ٣٤١ .

فأمره – سبحانه – بتقواه واتباع ما يوحى إليه ، وأمره بالتوكل ، كما جمع بين هذين الأصلين في غير موضع كقوله :

{ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} **(سورة هود / الآية : ١٢٣)**

وقوله :

{وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً{٨} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً{٩}

(سورة المزمل / الآيتان :٨-٩)

وقوله – تعالى – :

{ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} **(سورة الممتحنة / الآية :٤)**

وقوله – تعالى – :

{هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }

(سورة الرعد / الآية : ٣٠)

وقوله – تعالى – :

{ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً{٣}

(سورة الطلاق / الآيتان : ٢-٣)

وقوله تعالى في الفاتحة :

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{٥} **(سورة الفاتحة / الآية :٥)**

وعلم القرآن جمع في الفاتحة ، وعلم الفاتحة في هذين الأصلين عبادة الله ، والتوكل عليه .(٩٩)

وقال ربنا :

{وعَلَى اللّه فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } (سورة المائدة/ الآية : ٢٣)

{ومَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه فَهُو حَسْبُه} (سورة الطلاق / الآية : ٣)

والحق أن التوكل حقيقة مركبة من عدة أمور لا يكتمل التوكل ولا يصح إلا بها ، **وأول هذه الأمور : معرفة الله – عز وجل – وصفاته وقدرته وكفايته للعبد .**

ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ، ولا من القدرية النفاة القائلين : بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء ، ولا يستقيم أيضا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات .

فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه ؟ ولا هو فاعل باختياره ؟ ولا له إرادة ومشيئة ؟ ولا يقوم به صفة ؟

فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف : كان توكله أصح وأقوى والله .(١٠٠)

(٩٩) جامع الرسائل / ابن تيمية – ج١ – ص ٩١ – تحقيق / محمد رشاد رفيق سالم– بدون

(١٠٠) مدارج السالكين / ابن القيم – ج٢ – ص ١١٢.

وثانيها : الأخذ بالأسباب ، فمن ترك الأسباب وعطلها لم يكن متوكلا بل كان متواكلا

وانظر – إن شئت – إلى حال النبى – صلى الله عليه وسلم – وهو سيد المتوكلين ، واقرأ سيرته العطرة لتقف على استعداده للأمور ، وأخذه العدة لكل أمر كما فى غزواته وأسفاره ، وكذلك كان أصحابه الكرام الأجلاء – رضى الله عنهم –

ثالثا : توحيد الله – عز وجل – وعلى قدر التوحيد يكون التوكل

وكلما رسخ القلب فى مقام التوحيد رسخ فى مقام التوكل ، وكلما التفت العبد إلى غير الله أخذ هذا الالتفات من قلبه شعبة ، ونقص من توكله بمقدار هذه الشعبة.

ومن المعلوم أن التوكل من أكثر مقامات العبودية تعلقا بأسماء الله لا سيما أسماء الأفعال ، فله تعلق باسم الله الغفار والتواب والعفو الرؤوف والرحيم والفتاح والوهاب و الرزاق والمعطي والمانع والمحسن والمعز والمذل و الحافظ والرافع ، وله تعلق بعامة الأسماء الحسني ؛ ولهذا فسر بعض أهل العلم التوكل بأنه معرفة الله – عز وجل – فكلما كانت المعرفة بالله أكثر وأقوي كان التوكل كذلك

رابعا :اعتماد القلب على الله وسكونه إليه ، واشتياقه إليه ، واطمئنانه بذكره

ومتى تعلق القلب بغير الله فى جلب نفع أو دفع ضر لم يصح توكله .

خامسا : حسن الظن بالله

فالمتوكل على الله يحسن الظن به ، ويثق بوعده ، وينتظر الخير منه فى كل حال وحسن ظنه بربه هو الذى دفعه ليتوكل عليه ،أما من أساء الظن بالله فلا يمكن أن يتوكل عليه بحال .

سادسا :الاستسلام التام لله تماما

كالعبد الذليل يسلم نفسه لسيده ويستسلم له وينقاد ، ويترك الاختيار ، ويصنع ما يريده سيده لا يتلكأ ولا يتأخر ،كما قال ربنا – عز وجل عن الخليل وولده إسماعيل – عليهما السلام – :

{ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } **(الصافات /١٠٣)**

قال الطبري – رحمه الله – : فلما أسلما أمرهما لله ، وفوضاه إليه ، واتفقا على التسليم لأمره والرضا بقضائه. (١٠١)

سابعا :تفويض الأمر إلى الله

والتفويض أعلى درجات التوكل ، بل ولبه وحقيقته ، وفيه ينزل العبد كل أموره إلى الله ويعتقد أن تدبير الله له خير من تدبيره لنفسه ؛ وذلك لثقته فى قدرة الله ورحمته . (١٠٢)

---

(١٠١) تفسير الطبري / محمد بن جرير – ج ١٠ – ص ٥٠٦ .

(١٠٢) راجع مدارج السالكين م ابن القيم – ج٢ – ص١١٢ وما بعدها .

من الأخطاء فى باب التوكل :

١- عدم الأخذ بالأسباب

ظن بعض الناس - جهلا - أن المتوكل على الله حقا هو الذى يعطل الأسباب ولا يلتفت إليها البتة ، حتى رأينا من يدخل البادية أياما بلا طعام ولا شراب ، ورأينا من مسه الضر وتمكن المرض من بدنه ولا يذهب لطبيب ، ولا يقبل دواء، بل لا يعد من تداوي وطلب الطبيب متوكلا، وهذا الغزالي فى إحيائه يستحب ذلك كما قال : والسفر إلى البوادي من غير زاد جائز وهو أعلى مقامات التوكل.(١٠٣)

وقد عقب الشيخ الألبانى - رحمه الله - على كلام الغزالي - رحمه الله - فقال : قلت : وهذا باطل ، إذ لو كان كما قال لكان أحق الناس به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن نعلم يقينا أنه لم يفعل ذلك كيف وهو - صلى الله عليه وسلم - قد تزود من هديه - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى المدينة ، ولست أدري كيف يزعم الغزالي ذلك وهو حجة الإسلام

والله - عز وجل - يقول :

{ وتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقْوَى }

(سورة البقرة / الآية : ١٩٧)

(١٠٣) إحياء علوم الدين / أبو حامد الغزالي - ج٣ - ص ٢٤٩ - ج٤- ص ٢٢٩.

وقد نزلت في ناس من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ، ويقولون نحن المتوكلون . رواه البخاري (١٠٤) وغيره .

فما الذي صرف الغزالي عن هذه الحقيقة التي دل عليها الكتاب والسنة ؟ أهو الجهل ؟

كلا فإن هذا مما لا يخفى على مثله ، وانما هو التصوف الذي يحمل صاحبه على الخروج عن الشرع بطريق تأويل النصوص ، فهو في هذا وعلم الكلام سواء ، عصمنا الله بالسنة من كل من يخالفها. (١٠٥)

ومن جهل بعض الناس بالمعنى الصحيح للتوكل أن أحدهم قد يتعرض للهلاك ويجد من يساعده ويأخذ بيده ، ولكنه يرفض أن يستعين به لظنه أن ذلك ينافى التوكل ، ويقعد ينتظر الموت أن يأتيه ، وهذه حكاية يرويها ابن العربى ، وبعدها تعليق جيد لابن الجوزي ن وقد أورد ذلك القرطبى فى تفسيره

---

(١٠٤) ونص الحديث كما رواه البخارى :

" كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون نحن المتوكلون ؛ فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى { وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} البخاري (كتاب) الحج (باب) قوله تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) ج٢ – ص ٥٥٢– برقم ١٤٥١.

(١٠٥) حجة النبي – صلى الله عليه وسلم – كما رواها عنه جابر – رضى الله عنه – / محمد ناصر الدين الألباني – ج١ – ص ١٠٧ – المكتب الإسلامي – بيروت – ط٥– ١٣٩٩هـ .

فقال -رحمه الله – قال ابن العربى :

من أعظم المواثيق في الذكر ألا يسأل سواه ، فقد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ألا يسألوا أحدا شيئا فقال أبو حمزة : رب إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدا شيئا قال : فخرج حاجا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذا بقي عن أصحابه لعذر ثم اتبعهم فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ، فلما حل في قعره قال : أستغيث لعل أحدا يسمعني ، ثم قال : إن الذي عاهدته يراني ويسمعني ، والله لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر بذلك البئر نفر ، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغي سد هذا البئر ، ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطوها بالتراب ، فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله لا أخرج منها أبدا ، ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدت من رآك ؟ فسكت وتوكل ، ثم استند في قعر البئر مفكرا في أمره ، فإذا بالتراب يقع عليه والخشب يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات يدك ، قال : فأعطيته يدي فأقلني في مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحدا

فسمعت هاتفا يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل وأنشد ::

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى

فأغنيتني بالعلم منك عن الكشف

تلطفت في أمري فأبديت شاهدي

إلى غائبي واللطف يدرك باللطف

تراءيت لي بالعلم حتى كأنما

تخبرني بالغيب أنك في كف

أراني وبي من هيبتي لك وحشة

فتؤنسني باللطف منك وبالعطف

وتحيي محبا أنت في الحب حتفه

وذا عجب كيف الحياة مع الحتف؟

قال ابن العربي :

هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا.

قال أبو الفرج الجوزي :

سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه ، وذلك لا يحل ، ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة كما لم يخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من التوكل بإخفائه الخروج من مكة واستئجاره دليلا واستكتامه ذلك الأمر واستتاره في الغار : وقوله لسراقة : (اخف عنا)

فالتوكل الممدوح لا ينال بفعل محظور ، وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه ، وبيان ذلك أن الله – تعالى – قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطلها كان مدعيا للتوكل ؛ لأن التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى ، وليس من ضرورته قطع الأسباب ، ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار، قاله :

سفيان الثوري وغيره ؛ لأنه قد دل على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه .ذلك جهلا بالتوكل ، وردا لحكمة التواضع .

وقال أبو الفرج :

ولا التفات إلى قول أبي حمزة : (فجاء أسد فأخرجني) فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقا ، وقد يكون لطفا من الله – تعالى – بالعبد الجاهل ، ولا ينكر أن يكون الله – تعالى – لطف به ، إنما ينكر فعله الذي هو كسبه : وهو إعانته على نفسه التي هي وديعة لله – تعالى – عنده وقد أمره بحفظها . (١٠٦)

إنه التواكل المريع الذى ابتليت به الأمة ، وانها النظرة المنحرفة إلى الدنيا : النظرة التى تحترم البطالة وتبيح التسول وتسميه فتوحات ، لدرجة أن أصحاب هذه النظرة يعتبرون المتسولين أفضل من المحسنين إليهم الذين يمدون إليهم يد العون بحجة أن هؤلاء الشحاذين يحملون عن المحسنين ذنوبهم ،

(١٠٦) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبى – ج٩– ص ٢٦١

ولقد حدثنا التاريخ عن أقوام منهم كان أحدهم يترك مصدر رزقه الذى ليس له غيره ، ويعتكف فى زاوية لسنوات يهاجمه شبح الموت جوعا وهو لا يخرج للسعي بحجة التوكل وأبلغ مثال على ذلك ما ذكره صاحب كتاب حلية البشر حكاية عن الشيخ عبد الله الدهلوى حيث قال يحدث عن نفسه :

وكان لي جهة تعيِّش فتركتها ؛ فاشتدت عرى الفاقة عليَّ فاعتصمت بالتوكل ، واتخذته سجية !!، ولم يكن يومئذ عندي غير خلق حصير أفترشها ، ولبنة أتوسدها ، فبلغ بي الضعف أقصاه ، فلفرط ما نالني أغلقت باب حجرتي ، وقلت : هذا قبري حتى يأذن الله بالفتح أو بأمر من عنده ، فما لبثت أن فتح الله – تعالى – على يد من لا أعرفه ، فمكثت فى زاوية القناعة خمسين سنة . (١٠٧)

هذا هو التوكل كما يفهمه جمع غفير من الجهلاء ، جمع يرى السعى فى طلب الرزق تواكلا ، ومن عجب أنه يرى التسول ، ومد الأيدي للناس توكلا !!

أين هؤلاء من قول الله – عز وجل – :

{ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } **(سورة الجمعة/ الآية :١٠)**

وهذا نبى الله موسى – عليه السلام – يأخذ غلامه فى رحلته إلى الخضر – عليه السلام – ويحمل معه زاده

(١٠٧) حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر / عبد الرازق البيطار – ج٢ – ص٩٣٠ – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق – ١٣٨٠هـ – ١٩٦١م .

وهذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو إمام المتوكلين يستشير أصحابه فى بدر وأحد والخندق ، ويستعد لهجرته وأسفاره ، ويأخذ للأمر عدته ، ويتداوى ، ويأمر أمته بالتداوى ، ومن بعده يخرج الصديق إلى السوق ليتاجر وينفق على أولاده ، وهكذا لم يكن بين الصحابة عاطل يتكفف الناس ، بل لكل عمله وسعيه ، قال ابن القيم – رحمه الله –

وقد تداوى النبي – صلى الله عليه وسلم – وأمر بالتداوي ، وأخبر أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء إلا الهرم ، فأعلمنا أنه خالق أسباب الداء وأسباب الدواء المعارضة المقاومة لها ، وأمرنا بدفع تلك الأسباب المكروهة بهذه الأسباب ، وعلى هذا قيام مصالح الدارين ، بل الخلق والأمر مبني على هذه القاعدة ؛ فإن تعطيل الأسباب ولخراجها عن أن تكون أسبابا تعطيل للشرع ومصالح الدنيا ، والاعتماد عليها والركون إليها واعتقاد أن المسببات بها وحدها وأنها أسباب تامة شرك بالخالق – عز وجل – وجهل به وخروج عن حقيقة التوحيد ، واثبات مسبباتها على الوجه الذي خلقها الله عليه وجعلها له إثبات للخلق والأمر للشرع ، والقدر للسبب ، والمشيئة للتوحيد والحكمة ، فالشارع يثبت هذا ولا ينفيه ، وينفي ما عليه المشركون من اعتقادهم في ذلك . (١٠٨)

(١٠٨) مفتاح دار السعادة / ابن القيم – ج٢– ص ٢٩٦.

والمسلم يأخذ بالأسباب لكنه لا يلتفت بقلبه إليها ، ولا يتعلق قلبه بها ، بل يعلق بها جوارحه لا قلبه ، ولا يعتقد أن الأسباب تعمل وحدها ، ولا أن وجودها يقضى بحدوث المراد ، بل الأمر كله لله ، وقد توجد الأسباب ولا يوجد المسبب ، لأن الله – سبحانه – هو رب الأسباب وهى لا تعمل إلا بإذنه ، كما قال ربنا – جل وعلا – :

{ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ{٤٩} أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ{٥٠}

(سورة الشورى/ الآيتان:٤٩-٥٠)

فالزواج والنكاح سبب فى الولد ، ولكن قد يقع الزواج والنكاح ولا يكون الولد ، فالمسلم يأخذ بالأسباب نعم ، ولكنه لا يلتفت إليها ولا يعلق قلبه بها ،بل لا يعلق قلبه إلا بالله خالق الأسباب ومسيرها .

وقد كان الإمام أحمد – رحمه الله – يشدد فى هذه المسألة ، ويري المتقاعسين عن العمل بحجة التوكل مبتدعين ، ويدعو إلى العمل والتجارة ولو عند المرء كفاية ليتصدق على المحتاجين ويصل رحمه وقرابته ، وقد حكى ابن الجوزي طرفا من كلام الإمام أحمد فى ذلك كما فى كتابه تلبيس إبليس ، وإليك بعضا من كلامه :

قال الخلال : وأخبرني محمد بن علي قال : حدثنا صالح أنه سأل أباه يعني أحمد بن حنبل عن التوكل :

فقال التوكل حسن ، ولكن ينبغي أن يكتسب ويعمل حتى يغني نفسه وعياله ولا يترك العمل .

قال وسئل أبي وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ويقولون نحن المتوكلون ؟

فقال : هؤلاء مبتدعون .

قال الخلال : وأخبرنا المروزي أنه قال لأبي عبد الله أن ابن عيينة كان يقول : هم مبتدعة ، فقال أبو عبد الله : هؤلاء قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا .

وقال الخلال :

وأخبرنا المروزي قال :سألت أبا عبد الله عن رجل جلس في بيته فقال أبو عبد الله : هؤلاء قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا .

وقال الخلال : وأخبرنا المروزي قال :سألت أبا عبد الله عن رجل جلس في بيته وقال أجلس وأصبر وأقعد في البيت ولا أطلع على ذلك أحدا ؟

فقال : لو خرج فاحترف كان أحب إلي ، فإذا جلس خفت أن يخرجه جلوسه إلى غير هذا

قلت : إلى أي شيء يخرجه ؟

قال : يخرجه إلى أن يكون يتوقع أن يرسل إليه .

قال الخلال : وحدثنا أبو بكر المروزي قال :

سمعت رجلا يقول لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : إني في كفاية .

قال الزم السوق تصل به الرحم ، وتعود به على عيالك .

وقال لرجل آخر : اعمل وتصدق بالفضل على قرابتك .

وقال أحمد بن حنبل : قد أمرتهم – يعني أولاده – أن يختلفوا إلى السوق ، وأن يتعرضوا للتجارة .

قال الخلال : وأخبرني محمد بن الحسين أن الفضل بن محمد بن زياد حدثهم قال : سمعت أبا عبد الله يأمر بالسوق ، ويقول ما أحسن الاستغناء عن الناس .

وقال الخلال : وأخبرني يعقوب بن يوسف المطوعي قال :

أحب الدراهم إليَّ درهم من تجارة ، وأكرهها عندي الذي من صلة الإخوان (١٠٩).

ولقد تصدق عمر – رضى الله عنه – بنصف ماله وترك لأولاده النصف الآخر ، ولم يتركهم بلا مال يكفيهم ويكفهم عن المسألة ، ولا يستطيع أحد أن يقول : لم يكن الفاروق متوكلا حين فعل ذلك ، بل إن هذا من التوكل على الله .

وكذلك أراد سعد ابن أبى وقاص أن يتصدق بماله فلم يوافقه النبى– صلى الله عليه وسلم –

كما ورد فى صحيح البخاري – رحمه الله – فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه – قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت : إني قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة ، أفاتصدق بثلثي مالي ؟ قال (لا) .

قلت : بالشطر ؟

---

(١٠٩) تلبيس إبليس / ابن الجوزي – ج١ ص ٢٤٨.

فقال : (لا) ، ثم قال : (الثلث والثلث كبير أو كثير ؛ إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس .(١١٠)

قال ابن القيم – رحمه الله –

وقد تداوى النبي – صلى الله عليه وسلم – وأمر بالتداوي ، وأخبر أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء إلا الهرم ، فأعلمنا أنه خالق أسباب الداء وأسباب الدواء المعارضة المقاومة لها ، وأمرنا بدفع تلك الأسباب المكروهة بهذه الأسباب ، وعلى هذا قيام مصالح الدارين ، بل الخلق والأمر مبني على هذه القاعدة ؛ فإن تعطيل الأسباب ولخراجها عن أن تكون أسبابا تعطيل للشرع ومصالح الدنيا ، والاعتماد عليها والركون إليها واعتقاد أن المسببات بها وحدها وأنها أسباب تامة شرك بالخالق – عز وجل – وجهل به وخروج عن حقيقة التوحيد ، واثبات مسبباتها على الوجه الذي خلقها الله عليه وجعلها له إثبات للخلق والأمر للشرع ، والقدر للسبب ، والمشيئة للتوحيد والحكمة ، فالشارع يثبت هذا ولا ينفيه ، وينفي ما عليه المشركون من اعتقادهم في ذلك . (١١١)

٢– التوكل على الأسباب .

والمسلم يأخذ بالأسباب لكنه لا يلتفت بقلبه إليها ، ولا يتعلق قلبه بها ، بل يعلق بها جوارحه لا قلبه ، ولا يعتقد أن الأسباب تعمل وحدها ، ولا أن وجودها يقضي بحدوث المراد ، بل الأمر كله لله ، وقد توجد الأسباب ولا يوجد المسبب

(١١٠) متفق عليه : البخارى (كتاب) المغازى (باب) حجة الوداع – ج٤– ص ١٦٠٠– برقم ٤١٤٧ – ومسلم (كتاب)الوصية (باب) الوصية بالثلث – ج٣– ص١٢٥٠– برقم ١٦٢٨.

(١١١) مفتاح دار السعادة / ابن القيم – ج٢– ص ٢٩٦.

لأن الله – سبحانه – هو رب الأسباب وهى لا تعمل إلا بإذنه ، كما قال ربنا – جل وعلا – : **{ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور{٤٩} أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير{٥٠}** **(سورة الشورى/ الآيتان:٤٩-٥٠)**

فالزواج والنكاح سبب فى الولد ، ولكن قد يقع الزواج والنكاح ولا يكون الولد ، فالمسلم يأخذ بالأسباب نعم ، ولكنه لا يلتفت إليها ولا يعلق قلبه بها ،

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : وكل داع شافع دعا الله – سبحانه وتعالى– وشفع فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته ، وهو الذى يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة ، فهو الذى خلق السبب والمسبب ، والدعاء من جملة الأسباب التى قدرها الله – سبحانه وتعالي– ، وإذا كان كذلك فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله – سبحانه وتعالى – والله يقدر له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء . (١١٢)

(١١٢) مجموع الفتاوى / ابن تيمية – ج١ – ص ١٣١.

وقال فى موضع آخر :

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب ، كما جعل المطر سببا لإنبات النبات

قال الله – تعالى – :**{وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ }** **(سورة البقرة / الآية : ١٦٤)**

وكما جعل الشمس والقمر سببا لما يخلقه يهما ، وكما جعل الشفاعة والدعاء سببا لما يقضيه بذلك مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت فإن ذلك من الأسباب التى يرحمه الله بها ويثيب عليها المصلين عليه، لكن ينبغى أن يعرف فى الأسباب ثلاثة أمور ،

أحدها : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لابد معه من أسباب أُخر، ومع هذا فلها موانع فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود ، وهو – سبحانه– ما شاء كان وإن لم يشأ الناس ، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

الثانى : أنه لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئا سببا بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلا ، مثل من يظن أن النذر سبب فى دفع البلاء وحصول النعماء ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه نهى عن النذر وقال : إنه لا يأتي بخير ، وانما يستخرج به من البخيل . (١١٣)

(١١٣) متفق عليه : البخاري (كتاب) الإيمان والنذر (باب) الوفاء بالنذر – ج٦ –ص ٢٤٦٣– برقم ٦٣١٥– ومسلم (كتاب) النذر (باب) النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا – ج٣ – ص ١٢٦٠ – برقم ١٦٣٩.

الثالث : أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن تكون مشروعة ؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره وان ظن أن ذلك سبب فى حصول بعض أغراضه . (١١٤)

فليأخذ المسلم بكل سبب مباح يوصله إلى طلبته ومراده ، وليستعن بالله ولا يلتفت قلبه إلى سواه فهو – سبحانه – خالق السبب والمسبب لا يخرج عن علمه ولا مشيئته شئ فى الأرض ولا فى السماء ، ولا يسأل الناس شيئا إلا فيما يقدرون عليه وعند الضرورة كما قال ابن القيم – رحمه الله– :

التوكل مع إسقاط الطلب أي من الخلق لا من الحق ، فلا يطلب من أحد شيئا ، وهذا من أحسن الكلام وأنفعه للمريد ؛ فإن الطلب من الخلق فى الأصل محظور، وغايته أن يباح للضرورة كإباحة الميتة للمضطر ، ونص أحمد على أنه لا يجب ، وكذلك كان شيخنا يشير إلى أنه لا يجب الطلب والسؤال ، وسمعته يقول في السؤال :

هو ظلم في حق الربوبية ، وظلم في حق الخلق ، وظلم في حق النفس :

أما في حق الربوبية :

فلما فيه من الذل لغير الله ، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه والتعوض عن سؤاله بسؤال المخلوقين ، والتعرض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه .

(١١٤) مجموع الفتاوى – ج١– ص ١٣٧

وأما في حق الناس :

فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال واستخراجه منهم ، وأبغض ما إليهم : من يسألهم ما في أيديهم ، وأحب ما إليهم : من لا يسألهم ؛ فإن أموالهم محبوباتهم ، ومن سألك محبوبك فقد تعرض لمقتك وبغضك .

وأما ظلم السائل نفسه :

فحيث امتهنها وأقامها في مقام ذل السؤال ، ورضي لها بذل الطلب ممن هو مثله ، أو لعل السائل خير منه وأعلى قدرا ، وترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فقد أقام السائل نفسه مقام الذل وأهانها بذلك ، ورضي أن يكون شحاذا من شحاذ مثله ؛ فإن من تشحذه فهو أيضا شحاذ مثلك ، والله وحده هو الغني الحميد .

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير ، والرب تعالى كلما سألته كرمت عليه

ورضي عنك وأحبك ، والمخلوق كلما سألته هنت عليه وأبغضك ومقتك وقلاك كما

قيل : الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب

وقبيح بالعبد المريد : أن يتعرض لسؤال العبيد وهو يجد عند مولاه كل ما يريد ، وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي – رضي الله عنه – قال :

كنا عند رسول الله تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟

وكنا حديثي عهد ببيعة ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله .

ثم قال : ألا تبايعون رسول الله ؟

فبسطنا أيدينا ، وقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك ؟ فقال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس ، وأسر كلمة خفية :ولا تسألوا الناس شيئا .

قال : ولقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا أن يناوله إياه .(١١٥)

وفي الصحيحين عن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم. (١١٦)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي قال : من سأل الناس تكثرا فإنما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر . (١١٧)

فالتوكل مع إسقاط هذا الطلب والسؤال هو محض العبودية . (١١٨)

(١١٥) مسلم (كتاب) الزكاة (باب) كراهية المسألة للناس – ج٢ –ص ٧٢١– برقم ١٠٤٣.

(١١٦) متفق عليه : البخارى (كتاب) الزكاة (باب) من سأل الناس تكثرا – ج٢– ص ٥٣٦– برقم ١٤٠٥– ومسلم (كتاب) الزكاة (باب) كراهة المسألة – ج٢–ص ٧٢٠ – برقم ١٠٤٠ .

(١١٧) مسلم (كتاب) الزكاة (باب) كراهة المسألة – ج٢–ص ٧٢٠ – برقم ١٠٤١ .

(١١٨) مدارج السالكين / ابن القيم – ج٢ – ١٣٤

٣- ترك علو الهمة فى التوكل

كثير من الناس يفهم التوكل على معناه الصحيح ، وأنه اعتماد القلب على الله – وحده – والأخذ بالأسباب ، ولكنه يصرف توكله إلى أمور يسير تقضى بأيسر شئ : فتراه إذا افتقر مثلا يصرف جل توكله إلى هذه المسألة ، وينشغل بها ليل نهار لا هم له إلا هذه المسألة ، وترى آخرين يصرفون توكلهم فى البحث عن مسكن جميل أو سيارة فارهة ،أو عمل يدر ربحا وفيرا ، وربما يصرف أحدهم همه فى البحث عن رغيف العيش ، أو فى التداوي من مرض ، وهذا وان كان مباحا لا حرج فيه لكنه ترك للأولى ، وصرف للتوكل فى أمور يسيره ، أما الصالحون من أهل التوكل فهمومهم مصروفة إلى أعالي الأمور ، مصروفة إلى المصالح الدينية التى تنهض بالأمة وتردها لسالف مجدها وتأمل حال الصحابة فى توكلهم ،كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

فكانت همم الصحابة – رضى الله عنهم – أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعى فيجعله نصب عينيه ويحمل عليه قوى توكله :

فأفضل التوكل : التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس .

وأوسعه وأنفعه : التوكل في التأثير في الخارج فى مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين في الأرض ، وهذا توكل ورثتهم ،

ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم ، فمن متوكل على الله في حصول الملك ومن متوكل في حصول رغيف ، ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله ، فإن كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة ، وإن كان مسخوطا مبغوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه ، وإن كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه ، إن لم يستعن به على طاعاته .

وأيضا التوكل من الأمور الدينية التى لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها ، والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه ، و الزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة الله ، كما أن الورع المشروع هو ترك ما قد يضر فى الدار الآخرة ، وهو ترك المحرمات والشبهات التى لا تستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها كالواجبات ، فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ما

ينفع فى الدار الآخرة فالزهد فيه ليس من الدين ، بل صاحبه داخل فى قوله – تعالى – : **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }** **(سورة المائدة / الآية : ٨٧)**

كما أن الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع ، فإن اشتغل بها عن فعل واجب أو فعل محرم كان عاصيا ، وإلا كان منقوصا عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين .

وأيضا فإن التوكل هو محبوب لله ، مرضي له، مأمور به دائما ، وما كان محبوبا لله مرضيا له مأمورا به دائما لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين (١١٩) .

فواجب على المسلم أن يصرف همه فى توكله إلى ما فيه نفع دينه وأمته واخوانه فى الله، وألا يكون همه مصروفا إلى صغائر الأمور .

(١١٩) مجموع الفتاوى / ابن تيمية – ج١٠ ص ٢١

المبحث السادس

القصور والخطأ فى مفهوم التوسل

ومن صوره :

١. التوسل بجاه الأنبيا ء والأولياء والصالحين .
٢. التوسل بآثار النبى – صلى الله عليه وسلم – .

وإليك البيان والتفصيل :

معنى التوسل :

قبل البدء بالحديث عن الخلل الخطير والخطأ الكبير الذى أصاب مفهوم التوسل قمين بنا أن نبين المعنى السليم للتوسل ، وذلك لنرى الفرق الشاسع بين التوسل المشروع الذى شرعه الله ورسوله وبين التوسل غير المشروع الذى نراه اليوم فى دنيا الناس عند الكثيرين منهم :

أولا التوسل لغة :

قال ابن منظور :

الوَسيلةُ المَنْزِلة عند المَلك ، والوَسيلة الدَّرَجة ، والوَسيلة القُرْبة ، و وسَّل فلان إِلى الله وَسِيلةً إِذا عَمِلَ عملاً تقَرَّب به إِليه ، والواسِل الراغِبُ إِلى الله ، قال لبيد :

أَرى الناسَ لا يَدْرُونَ ما قَدْرُ أَمرِهم ... بَلى كلُّ ذي رَأْيٍ إِلى الله واسِلُ

وتوَسَّل إِليه بوَسِيلة إِذ تقَرَّب إِليه بعمل ، وتوسَّل إِليه بكذا تقرَّب إِليه بحُرْمةِ آصِرةٍ تُعْطِفه عليه ، والوَسِيلةُ الوُصْلة والقُرْبى وجمعها الوسائل قال الله – تعالى – :

{ أُولئك الذين يَدْعون يَبْتَغون إِلى ربِّهم الوَسِيلةَ أَيُّهم أَقْرَب }

(سورة الإسراء/ الآية :٥٧)

قال الجوهري : الوَسيلةُ ما يتقرَّب به إلى الغَير والجمع الوسلُ والوسائلُ ، والتَّوسيلُ والتوسُّلُ واحد . (١٢٠)

وفى القاموس المحيط :

الوسيلَةُ والواسلَةُ : المنزِلَةُ عند المَلك والدَّرجةُ والقُربةُ .

و وسَّل إلى الله – تعالى – توسيلاً : عَمِلَ عملاً تَقرَّب به إليه كتوسَّل .

والواسلُ : الواجبُ والراغبُ إلى اللّه تعالى . (١٢١)

وعلى هذا فالتوسل معناه التقرب إلى الله ، وطلب المنزلة العالية عنده ، والرغبة إليه .

وعلى هذا فمعنى التوسل التقرب إلى الله بالعمل بما يرضيه ، وبهذا فسره سلفنا الصالح حينما تعرضوا لتفسير الآيتين الكريمتين اللتين وردت فيهما لفظة الوسيلة وهما قول الله – عز وجل – :

{يا أَيُّها الَّذين آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وابْتَغُواْ إليه الْوسيلَةَ وجَاهدُواْ في سبيله لَعَلَّكُمْ تُفْلحون } **(سورة المائدة / الآية : ٣٥)**

وقوله – عز وجل –

{ أُولئك الذين يدّعون يبتَغون إلى ربِّهم الوسيلَةَ أيُّهم أَقْربَ }

(سورة الإسراء/ الآية :٥٧)

(١٢٠) لسان العرب / ابن منظور – ج ١١– ص ٧٢٤ .

(١٢١) القاموس المحيط م الفيروز آبادي – ج١ – ص ١٣٧٩.

وفى تفسير الآية الأولى قال ابن جرير – رحمه الله – :

يعني جل ثناؤه بذلك : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعد من الثواب وأوعد من العقاب .

{ اتقوا الله } يقول : أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم بالطاعة له في ذلك ، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبتكم بالصالح من أعمالكم .

{ وابتغوا إليه الوسيلة } يقول :

واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه. (١٢٢)

وقال ابن كثير – رحمه الله – :

يقول – تعالى – آمرا عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات ، وقد قال بعدها { وابتغوا إليه الوسيلة }

قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس : أي القربة ، وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد .

وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .

أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة } وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والوسائل . (١٢٣)

(١٢٢) جامع البيان / محمد بن جرير الطبرى – ج ٤ – ص ٥٦٦.

(١٢٣) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير – ج٢ – ص٧٣.

وعن الآية الثانية قال ابن كثير :

{ قل } يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله :{ ادعوا الذين زعمتم من دونه } من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم ، فإنهم { لا يملكون كشف الضر عنكم } أي بالكلية .

{ ولا تحويلا } أي بأن يحولوه إلى غيركم ، والمعنى أن الذي يقدر ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر .

قال العوفي عن ابن عباس في قوله :

{ قل ادعوا الذين زعمتم } قال : كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا وهم الذين يدعون يعني في الملائكة والمسيح وعزيرا .

وقوله تعالى : { أولئك الذين يدعون } روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله :{ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة } قال : ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا . (١٢٤)

وقال قتادة عن معبد بن عبد الله الزماني عن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن مسعود في قوله :{ أولئك الذين يدعون } قال :

نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم فنزلت هذه الآية . (١٢٥)

---

(١٢٤) البخارى (كتاب) التفسير (باب) " أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة " ج٤ – ص ١٧٤٨– برقم ٤٤٣٨.

(١٢٥) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير – ج٣– ص ٦٦.

قال ابن حجر فى الفتح :

أي استمر الأنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا ، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة .

وروى الطبري من وجه آخر عن بن مسعود فزاد فيه : والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم .

وهذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية . (١٢٦)

ومما يجب التنبيه عليه فى هذا المقام أن الوسيلة لابد أن تكون مشروعة موافقة لهدى الله ورسوله وذلك لأن التوسل عبادة ، قال الشيخ الألبانى – رحمه الله – : من الأسباب الشرعية الموهومة اتخاذ بعض الناس أسبابا يظنونها تقربهم إلى الله – سبحانه – وهي تباعدهم منه في الحقيقة ، وتجلب لهم السخط والغضب بل واللعنة والعذاب ، فمن ذلك استغاثة بعضهم بالموتى المقبورين من الأولياء والصالحين ليقضوا لهم حوائجهم التي لا يستطيع قضاءها إلا الله – سبحانه وتعالى – كطلبهم منهم دفع الضر وشفاء السقم وجلب الرزق وإزالة العقم والنصر على العدو وأمثال ذلك ؛ فيتمسحون بحديد الأضرحة وحجارة القبور ويهزونها أو يلقون إليها أوراقا كتبوا فيها طلباتهم ورغباتهم ، فهذه وسائل شرعية بزعمهم ، ولكنها في الحقيقة باطلة ومخالفة لأساس الإسلام الأكبر الذي هو العبودية لله – وحده – وافراده – سبحانه– بجميع أنواعها وفروعها . (١٢٧)

---

(١٢٦) فتح الباري فى شرح صحيح البخارى / أحمد بن على بن حجر العسقلانى – ج٨– ص ٣٩٧– ط١– دار المعرفة بيروت – ١٣٧٩هـ

(١٢٧) التوسل / الشيخ / محمد ناصر الألبانى – ص ١٨ – المكتب الإسلامى – ط٤– ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م

التوسل عبادة لله ، والأصل فى العبادة المنع إلا ما جاء به الشرع والله – عز وجل – لا يعبد إلا بما شرع فمن عبده بغير ما شرع فقد ابتدع وافترى إثما عظيما كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

العبادات مبناها على الشرع والاتباع لا على الهوى والابتداع ؛ فإن الإسلام مبنى على أصلين :

أحدهما : أن نعبد الله وحده لا شريك له .

والثاني :أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله لا نعبده بالأهواء والبدع قال الله – تعالى –:

{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ{١٨} إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا }

(سورة الجاثية / ١٨ – ١٩)

وقال – تعالى – :

{ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}

سورة الشورى / الآية :٢١)

فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله – صلى الله عليه وسلم – من واجب ومستحب لا نعبده بالأمور المبتدعة . (١٢٨)

(١٢٨) مجموع الفتاوى / ابن تيمية – ج١ –ص ٧٩.

إذن فلابد من التقرب إلى الله ، وذلك لا يكون إلا بالعمل الصالح الذى يرتضيه الله – عز وجل – والله– سبحانه – لم يكل إلينا تحديد العمل الصالح ؛ لأنه – سبحانه – يعلم أنه لو وكله إلينا سنختلف ونتباين ؛ ولذا بين لنا فى كتابه مفهوم العمل الصالح ، وذلك موجود فى كتابه فى أكثر من آية منها قوله – تعالى – :

{ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً }

(سورة الكهف / الآية :١١٠)

قال ابن كثير – رحمه الله – :

{ فليعمل عملا صالحا } أي ما كان موافقا لشرع الله .

{ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا } وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له .

وهذان ركنا العمل المتقبل : لا بد أن يكون خالصا لله صوابا على شريعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (١٢٩)

ونفس المعنى نجده فى قول الله – عز وجل – :

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}

(سورة الملك /الآية :٢)

قال ابن القيم – رحمه الله – :

فلا يكون العبد متحققا ب"إياك نعبد " إلا بأصلين عظيمين :

أحدهما : متابعة الرسول .

والثاني : الإخلاص للمعبود فهذا تحقيق " إياك نعبد "

---

(١٢٩) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير – ج٣– ص ١٤٧ .

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضا إلى أربعة أقسام :

أحدها : أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة وهم أهل "إياك نعبد : حقيقة ، فأعمالهم كلها لله ، وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ، ومنعهم لله ، وحبهم لله ، وبغضهم لله ، فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله – وحده – لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ، ولا هربا من ذمهم ، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم البتة ، بل من جاهل بشأنهم وجاهل بربه ، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه ، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، والا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم .

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ولما يحبه ويرضاه ، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه ، وهو الذي بلا عباده بالموت والحياة لأجله : قال الله تعالى :

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}

(سورة الملك /الآية ٢)

وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملا

قال الفضيل بن عياض :

العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه .

قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟

قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، ولذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة ، وهذا هو المذكور في قوله – تعالى – :

{ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً }

(سورة الكهف / الآية :١١٠)

وفي قوله :{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ}

(النساء /:١٢٥)

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه على متابعة أمره ،

وما عدا ذلك فهو مردود على عامله يرد عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورا. (١٣٠)

التوسل المشروع

لما كان التوسل عبادة لله فالواجب أن تكون العبادة كما شرع الله ؛ لأن الله – عز وجل – لا يعبد إلا بما شرع ، ولا يقبل من العمل ما لم يكن مشروعا ، ومن هنا وجب أن نبين ما يشرع من التوسل كما جاء فى كتاب الله – سبحانه – وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم –

(١٣٠) مدارج السالكين / ابن القيم – ج١– ص ٨٣–٨٤ .

ويمكن حصر التوسل المشروع فى ثلاثة أنواع :

الأول : التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

وذلك مثل أن يقول العبد : الله يا رحمن يا رحيم ارحمنا فى الدنيا والآخرة ، أو يا قوى يا متين قونا أ ويقول : اللهم إني أسألك برحمتك التى وسعت كل شئ أن ترحمني رحمة واسعة ، والدليل على مشروعية هذا النوع من التوسل قول الله – عز وجل – :

{ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون } **(سورة الأعراف / الآية :١٨٠)**

قال الشوكانى – رحمه الله – :

هذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل ، والحسنى تأنيث الأحسن : أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول ، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة فإنه إذا دعي بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة . (١٣١)

وعلى المسلم أن ينتقى من أسماء الله ما يتناسب مع حاجته ، فإذا أراد المغفرة قال : يا غفور يا غفار اغفر لي ، ولذا أراد التوبة قال : اللهم يا تواب تب على ، ولذا أراد القوة قال : اللهم يا قوى قوني وهكذا ، وتأمل دعاء أيوب – عليه السلام – وقد اشتد به المرض وكان فى أمس الحاجة إلى الرحمة ، – وهى خير ما يرجى للمريض –

(١٣١) فتح القدير / محمد بن على الشوكانى – ج٢– ص ٣٩٠.

فقال كما حكى القرآن الكريم :

{ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }

(سورة الأنبياء/ الآية :٨٣)

قال ابن القيم – رحمه الله – :

جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد واظهار الفقر والفاقة إلى ربه ، ووجود طعم المحبة في المتملق له والإقرار له بصفة الرحمة ، وأنه أرحم الراحمين ، والتوسل إليه بصفاته – سبحانه – وشدة حاجته وهو فقره ، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه . (١٣٢)

وهذا نبى الله سليمان – عليه السلام – يدعو الله قائلا :

{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }

(سورة النمل/ الآية :١٩)

وهذا خليل الرحمن يرفع القواعد من البيت ويدعو الله قائلا :

{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{١٢٧} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{١٢٨} رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{١٢٩}

(سورة البقرة / الآيات من :١٢٧– ١٢٩)

(١٣٢) الفوائد / ابن القيم – ص ٢٠١– دار الكتب العلمية – بيروت – ط٢ – ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م

وهذا دعاء نبى الله موسى – عليه السلام ومن آمن معه :

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ{٨٤} فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٨٥} وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{٨٦} وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{٨٧} وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ{٨٨}

(سورة يونس من الآيات من: ٨٤ – ٨٨)

وهكذا كل أدعية القرآن الكريم ، ولو ألقينا نظرة سريعة على السنة لوجدنا الأمر كذلك ، فعن عطاء بن السائب عن أبيه قال : صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها فقال له بعض القوم :

لقد خففت أو أوجزت الصلاة .

فقال : أما على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

فلما قام تبعه رجل من القوم هو أبي غير أنه كنى عن نفسه فسأله عن الدعاء ، ثم جاء فأخبر به القوم :

" اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضاء بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين " (١٣٣)

وعن أنس أنه كان مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالسا ورجل يصلي ثم دعا :

" اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم "

فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لقد دعا الله – عز وجل – باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب ،وإذا سئل به أعطى" (١٣٤)

---

(١٣٣) (صحيح) النسائي فى سننه (كتاب) السهو (باب) الدعاء بعد الذكر – ج٣– ص٥٤– برقم ١٣٠٥– وأحمد فى المسند – ج٤ ص ٢٦٤– برقم ١٨٣٥١– وابن حبان فى صحيحه – ج٥– ص ٣٠٤– برقم ١٩٧١– والحاكم فى المستدرك – ج١ – ص ٧٠٥ – برقم ١٩٢٣.

(١٣٤) (صحيح) أبو داود (كتاب) سجود القرآن (باب) الدعاء – ج١– ص ٤٧٠ – برقم ١٤٩٥– والترمذي – ج٣– ص ٥١٦– برقم ١٢١١– والنسائي ج٣– ص ٥٢– برقم ١٣٠٠– وصححه الألبانى كما فى صحيح أبى داود برقم ١٣٢٦– ج١– ص ١٧٩ .

ومن ذلك أدعية الكرب والتى منها قوله – صلى الله عليه وسلم – :

ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال :

" **اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي** ؛ إلا أذهب الله – عز وجل – همه ، وأبدله مكان حزنه فرحا . "

قالوا يا رسول الله : ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟

قال : أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن . (١٣٥)

ومن التوسل بالصفة ما رواه مسلم من حديث ابن عباس :

: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يقول:

" اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون. " (١٣٦)

---

(١٣٥) (صحيح) أحمد فى المسند – ج١– ص ٣٩١ – برقم ٣٧١٢– وصححه الألبانى فلا السلسلة الصحيحة برقم ١٩٩– ج١– ص ٣٨٣– وفى صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٨٢٢– ج٢ – ص ١٧١.

(١٣٦) مسلم (كتاب) الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار(باب) التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل – ج٤ – ص ٢١٨٦– برقم ٢٧١٧.

إن التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى دأب الأنبياء والصالحين ، ولو تأملت أدعية القرآن والسنة لوجدتها كذلك ، والتوسل بها من التوسل المشروع ، بل والمحبوب إلى الله – عز وجل – وهو باب واسع رحيب ؛ لأن أسماء الله وصفاته لا حصر لها ، فلا يصح لمسلم أن يترك ذلك الباب الذى عنى به القرآن وأفسح له مجالا عريض ثم يلج أبوابا ضيقة موصدة لم يأذن بها الله .

الثانى : التوسل إلى الله بالعمل الصالح .

فللمسلم أن يتوسل إلى الله بعمل صالح قام به ، كأن يتوسل بإيمانه وصلاته وزكاته وصيامه وقيامه وبره لوالديه وتركه المنكرات وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فيقول مثلا : اللهم بحبي لنبيك – صلى الله عليه وسلم وردى لشبهات الأعداء عنها اغفر لي ، ورد عنى السوء وأهل السوء ، ويدل على مشروعية هذا النوع من التوسل آيات من القرآن منها قول الله – عز وجل – فى كتابه العزيز :

{ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}

(سورة آل عمران /الآية :١٦)

وقوله – سبحانه وتعالى :

{رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ }

(سورة آل عمران / الآية : ٥٣

وقوله :

{ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار }

(سورة آل عمران/ الآية :١٩٣)

وقوله – عز وجل – :

{إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين }

(سورة المؤمنون/ الآية :١٠٩)

وفى الآيات السابقة توسل الداعون بإيمانهم وطاعتهم للنبي – صلى الله عليه وسلم – وطلبوا من الله – عز وجل– أن يغفر لهم وأن يرحمهم ، وليس هناك عمل أفضل من الإيمان بالله ورسوله ولا أصلح منه ليتوسل المسلم به إلى الله – عز وجل – ، فعلى المسلم أن يتعلم من القرآن ويقد م بين يدي مسألته عملا صالحا يدعو الله به ويتوسل به إليه لينال بغيته ويدرك طلبته .

ومن السنة

يستدل بقصة أصحاب الغار والتى رواها الشيخان من حديث ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

(بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر ؛ فأووا إلى الغار فانطبق عليهم فقال بعضهم لبعض :

إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه

فقال واحد منهم :

اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرز فذهب وتركه ، واني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته ؛ فصار من أمره أني اشتريت منه بقرا ، وأنه أتاني يطلب أجره ، فقلت : اعمد إلى تلك البقر فسقها .

فقال لي : إنما لي عندك فرق من أرز .

فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق فساقها ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ؛ فانساحت عنهم الصخرة .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي ، فأبطأت عليهما ليلة فجئت وقد رقدا ، وأهلي وعيالي يتضاغون (١٣٧) من الجوع فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي ، فكرهت أن أوقظهما ، وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما (١٣٨) ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ؛ فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي ، وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتها حتى قدرت فأتيت بها فدفعتها إليها؛ فأمكنتني من نفسها ،

(١٣٧) يبكون بصياح ، انظر فتح البرى – ج٦ – ص ٥٠٩ .

(١٣٨) يستكنا لشربتهما : أي : يضعفا لعدم شربتهما ، انظر فتح الباري – ج٦ –ص ٥٠٩ .

فلما قعدت بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ؛ فقمت وتركت المائة دينار فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ؛ففرج الله عنهم فخرجوا . (١٣٩)

قال النووي فى شرحه لصحيح مسلم :

استدل أصحابنا بهذا على أنه يستحب للإنسان أن يدعو فى حال كربه وفى دعاء الاستسقاء وغيره بصالح عمله ، ويتوسل إلى الله -تعالى- به؛ لأن هؤلاء فعلوه فاستجيب لهم ، وذكره النبى - صلى الله عليه وسلم - فى معرض الثناء عليهم وجميل فضائلهم.(١٤٠)

وقال ابن حجر فى الفتح :

وفى هذا الحديث استحباب الدعاء فى الكرب والتقرب إلى الله - تعالى - بذكر صالح العمل واستنجاز وعده وسؤاله .(١٤١)

فالحديث يعلم المسلم أن يحسن العمل ، ويخلص فيه ويقدمه بين يدي مسألته ، ويعلم المسلم أن يدخر لنفسه أعمالا صالحة يخفيها عن الناس لا يعلمها إلا الله بنية التقرب إلى الله بها فى الشدة وعند الحاجة لينال مراده وتقضى حاجته .

---

(١٣٩) متفق عليه : البخارى (كتاب) الأنبياء (باب) أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم - ج٣ - ص ١٢٧٨- برقم ٣٢٧٨- ومسلم (كتاب) الذكر والدعاء والتوبة (باب) قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح العمل - ج٤- ص ٢٠٩٩- برقم ١٤٣.

(١٤٠) المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج - ج١٧ - ص ٥٥- دار إحياء التراث العربى - بيروت - ط٢- ١٣٩٢هـ .

(١٤١) فتح الباري / ابن حجر العسقلانى - ج٦ -ص ٥١٠ .

وتعليقا على حديث أصحاب الصخرة يقول الشيخ الألبانى – رحمه الله –:

ورسولنا الكريم – صلوات الله وسلامه عليه – يروي لنا هذه القصة الرائعة التى كانت فى بطون الغيب لا يعلمها إلا الله – سبحانه وتعالى – ليذكرنا بأعمال مثالية لأناس فاضلين مثاليين من أتباع الرسل السابقين ؛ لنقتدي بهم ، ونتأسى بأعمالهم ، ونأخذ من أخبارهم الدروس الثمينة والعظات البالغة ، ولا يقولن قائل : إن هذه الأعمال جرت قبل بعثة نبينا – صلى الله عليه وسلم – فلا تنطبق علينا بناء على ما هو الراجح فى علم الأصول أن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا ؛ لأننا نقول : إن حكاية النبى – صلى الله عليه وسلم – لهذه الحادثة إنما جاءت فى سياق المدح والثناء والتعظيم والتبجيل ، وهذا إقرار منه – صلى الله عليه وسلم – بذلك ، بل هو أكثر من إقرار لما قاموا به من التوسل بأعمالهم الصالحة المذكورة ، بل إن هذا ليس إلا شرحا وتطبيقا عمليا للآيات المتقدمة ، وبذلك تتلاقى الشرائع السماوية فى تعاليمها وتوجيهاتها ومقاصدها وغاياتها ، ولا غرابة فى ذلك فهى تنبع من معين واحد ، وتخرج من مشكاة واحدة وخاصة فيما يتعلق بحال الناس مع ربهم – سبحانه– فهى لا تكاد تختلف إلا فى القليل النادر التى تقتضى حكمة الله – سبحانه – تغييره وتبديله . (١٤٢) .

وكذلك حديث دعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – فى صلاة الليل فقد توسل فيه إلى الله – عز وجل – بتوحيده لله وحمده له وثنائه عليه وذلك يتكرر كثيرا فى أدعية النبى – صلى الله عليه وسلم –

(١٤٢) التوسل أنواعه وأحكامه / محمد ناصر الدين الألبانى – ص ٤٠ – ٤١ .

وكذلك نجده فى سورة الفاتحة : حمد لله وثناء عليه ، ثم طلب للهداية ، كما قال ابن القيم – رحمه الله – : وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده ، ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب : وهو الهداية بعد الوسيلتين ، فالداعي به حقيق بالإجابة

ونظير هذا دعاء النبي الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس : " اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن ، فيهن ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت . " (١٤٣) فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له ثم سأله المغفرة . (١٤٤)

(١٤٣) البخارى (كتاب) الدعوات (باب) الدعاء إذا انتبه من الليل – ج٥– ص ٣٣٢٨– برقم ٥٩٥٨.

(١٤٤) مدارج السالكين / ابن القيم – ج١ – ص ١٢٤.

الثالث : التوسل إلى الله بدعاء الصالحين

فإذا مس المسلم الضر، أو أحاطت به ضائقة وشدة فله أن يطلب من مسلم يتوخى فيه الصلاح أن يدعو الله له ، وذلك من التوسل المشروع ومن أدلة مشروعيتهما رواه الشيخان من حديث أنس بن مالك قال : أصابت الناس سنة. (١٤٥) على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – فبينما النبي – صلى الله عليه وسلم – يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال :

يا رسول هلك المال ، وجاع العيال فادع الله لنا ، فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة (١٤٦) فو الذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته – صلى الله عليه وسلم – فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى . ، وقام ذلك الأعرابي ، أو قال غيره فقا :

يا رسول الله ، تهدم البناء ، وغرق المال فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال : " اللهم حوالينا ولا علينا " .

(١٤٥) سنة أي : جدب – انظر فتح الباري – ج٢–ص ٥٠٢.

(١٤٦) قزعة سحاب متفرق . انظر فتح الباري – ج٢ – ص ٥٠٢– وقال النووي :قطعة من السحاب – انظر المنهاج– ج٦– ص ١٩٢.

فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة (١٤٧) وسال الوادي قناة (١٤٨) شهرا ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود. (١٤٩) (١٥٠)

قال ابن حجر – رحمه الله – فى بيانه لما يستفاد من هذا الحديث : فيه سؤال الدعاء من أهل الخير ومن يرجى منه القبول . (١٥١)

ومن الأدلة كذلك حديث استسقاء عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – بالعباس بن عبد المطلب – رضى الله عنه –وقد رواه الإمام البخاري من حديث أنس :

أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا .

(١٤٧) (الجوبة) الفرجة المستديرة في السحاب أو أحاطت بها المياه كالحوض المستدير ، انظر فتح الباري – ج٢– ص ٥٠٣

(١٤٨) (قناة) اسم لواد معين من أودية المدينة – السابق ج٢– ص ٥٠٣ .

(١٤٩)(بالجود) المطر الغزير . انظر السابق – السابق – ج٢– ص ٥٠٤.

(١٥٠) متفق عليه البخارى (كتاب) الجمعة (باب)الاستسقاء فى الخطبة يوم الجمعة – ج١– ص ٣١٥– برقم ٨٩١– ومسلم (كتاب) صلاة الاستسقاء (باب) الدعاء فى الاستسقاء – ج٢ – ص ٦١٢– برقم ٨٩٧

(١٥١) فتح الباري – ابن حجر العسقلانى – ج ٢– ص ٥٠٦.

قال : فيسقون . (١٥٢)

وواضح من الحديث أن الصحابة لما أُجدبوا لم يلجأوا إلى قبر النبى – صلى الله عليه وسلم – ليطلبوا منه السقيا ، أو ليطلبوا منه كشفا لهذا الضر وكذلك لم يتوسلوا إلى الله بجاه نبيهم مع عظم جاهه ، ومع أنهم أعلم الناس بجاهه ومكانته عند الله ، ولعلمهم أنه – صلى الله عليه وسلم – انتقل إلى جوار الله الكريم ، وأنه لن يجيب من يدعوه ، ولن يسمعه ، وأن هذا لا يشرع ؛ ومن أجل ذلك استسقوا برجل حى يعيش بينهم ظنوا فيه الصلاح وسألوه أن يستسقى لهم ، فاستسقى فسقاهم الله .

بيزيد ومن الأدلة استسقاء معاوية بن أبى سفيان خال المؤمنين – رضى الله عنه – بن الأسود الجرشى (١٥٣)،

(١٥٢) البخاري(كتاب) الاستسقاء (باب) سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا – ج١ – ص ٣٤٢– برقم ٩٦٤

(١٥٣) يزيد بن الأسود الجرشى تابعي جليل أسلم في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يلقه، وقدم الشام ، وسكن بقرية زبدين في الغوطة وله دار بداخل باب شرقي ، قال سعيد بن عبد العزيز عن يونس بن ميسرة قال : قلت ليزيد بن الأسود : يا أبا الأسود كم أتى عليك قال : أدركت العزى تعبد في قرية قومي .

، وروي أحمد في المسند عن عتبة بن أبي حكيم قال : عاد واثلة بن الأسقع يزيد بن الأسود الجرشي و قد نزل به الموت فقال : يا أخي كيف تجدك ؟ قال : أجدني أرجو وأخاف ، قال : له أيهما في نفسك أكثر ؟ قال : الرجاء ، قال واثلة : الله أكبر سمعت رسول الله – صلى الله عليه و سلم – يقول :قال الله – عز و جل – : أنا عند ظن عبدي بي . والحديث صححه الأرنؤوط كما فى المسند برقم ١٧٠٢٠–ج٤– ص ١٠٦.

وانظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج٧– ص٤٤٤، وفى الاستيعاب ج٣– ص ٦٦٠ ، وفى السير ج٦– ص ١٣٦ ، وفى الإصابة ج٣– ص ٦٧٣، وفى أسد الغابة ج٤– ص ٧٠٠

وقد روى قصة هذا الاستسقاء ابن عساكر – رحمه الله – فى تاريخه بسند صحيح عن التابعي الجليل سليم بن عامر الخبائرى : إن السماء قحطت؛ فخرج معاوية وأهل دمشق يستسقون ، فلما قعد معاوية على المنبر قال : أين يزيد بن الأسود الجرشي ؟ فناداه الناس فأقبل يتخطى الناس ، فأمره معاوية فصعد المنبر فقعد عند رجليه فقال : معاوية : اللهم إنا نستشفع إليك بخيرنا وأفضلنا ، اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود يا يزيد ارفع يديك إلى الله ، فرفع يزيد يديه ورفع الناس فما كان بأوشك أن ثارت سحابة كأنها ترس ، وهبت لها ريح فسقينا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم .

وقال سعيد بن عبد العزيز ويحيى بن أبي عمر الشيباني وغيرهما : إن الضحاك بن قيس استسقى بيزيد بن الأسود فما برحوا حتى سقوا . (١٥٤)

التوسل بجاه الأنبيا ء والأولياء والصالحين

وقد مس التوسل من الضر وناله من الخلل ما أصاب كثيرا من العبادات ، وشرع كثير من الناس لأنفسهم أنواعا من التوسل ما أنزل الله بها من سلطان فرأينا أقواما يحلون لأنفسهم التوسل بجاه النبى – صلى الله عليه وسلم – والتوسل بجاه الأولياء والصالحين ، وبحق فلان ، وبآثار النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا مستند لهم صحيح ، بل الهوى قائدهم ، والأذواق والمواجيد .

---

(١٥٤) رو ى القصة ابن عساكر فى تاريخه ج ١٨– ص ١٥١ ، قال الشيخ الألبانى : وعزاه الحافظ العسقلانى فى الإصابة ج٣– ص ٦٣٤ لأبى زرعة الدمشقى ويعقوب بن سفيان فى تاريخهما بسند صحيح عن سليم بن عامر ، انظر التوسل ص ٤٥– وقد روى القصة كذلك الذهبي فى تاريخه ج١– ص ٦٧٨ ،وكذلك رواها اللالكائى فى كرامات الأولياء ج١– ص ١١٩.

وكأني بهم ينطبق عليهم قول الله – عز وجل – :

{ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ } **(البقرة /:٦١)**

إنك لتقضى العجب معي حين ترى أناسا يتركون الطريق الواسع المعبد ويندفعون بكل قوة لديهم فى الطرق الشائك الضيق الموحش ، واذا نصحهم ناصح رفضوا النصح ورموه بكل نقيصة ،

ولنك إن تأملت أدعية القرآن دعاء دعاء لن تجد فيها توسلا بجاه أحد ، ولا بحق أحد ، ولا بآثار أحد ، وكذلك أدعية السنة فتأملها .

فلن تجد فيها توسلا بحق أحد ، أو جاه أحد ، أو أثر أحد ، يقول شيخ الإسلام : قول السائل لله تعالى : أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان يقتضى أن هؤلاء لهم عند الله جاه ، وهذا صحيح ؛ فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقتضى أن يرفع الله درجاتهم ، ويعظم أقدارهم ، ويقبل شفاعتهم إذا شفعوا ، مع أنه – سبحانه – قال :

{ من ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} **(سورة البقرة / الآية : ٢٥٥)**

يقتضى أيضا أن من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيدا ، ومن أطاع أمرهم الذى بلغوه عن الله كان سعيدا ،

ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضى إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك ، بل جاههم ينفعه أيضا إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله ، أو تأسى بهم فيما سنوه للمؤمنين ، وينفعه أيضا إذا دعوا له وشفعوا فيه ، فأما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعة ، ولا منه سبب يقتضى الإجابة لم يكن متشفعا بجاههم ، ولم يكن سؤاله بجاههم نافعا له عند الله ، بل يكون قد سأل بأمر أجنبي عنه ليس سببا لنفعه ، ولو قال الرجل لمطاع كبير : أسألك بطاعة فلان لك ، وبحبك له على طاعتك ، وبجاهه عندك الذى أوجبته طاعته لك لكان قد سأله بأمر أجنبي لا تعلق له به ، فكذلك إحسان الله إلى هؤلاء المقربين ومحبته لهم وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم إياه ليس فى ذلك ما يوجب إجابة دعاء من يسأل بهم ، وانما يوجب إجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم ، أو سبب منهم لشفاعتهم له ، فإذا انتفى هذا وهذا فلا سبب .

نعم لو سأل الله بإيمانه بمحمد ومحبته له وطاعته له واتباعه لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضى إجابة الدعاء ، بل هذا أعظم الأسباب والوسائل ، والنبي بين أن شفاعته فى الآخرة تنفع أهل التوحيد لا أهل الشرك ، وهى مستحقة لمن دعا له بالوسيلة . (١٥٥)

وقد فتح التوسل غير المشروع باب عظيما من الشرك والمشاقة لله ورسوله ، والمحادة له واللياذ بغيره ، والغلو فى الأنبياء والصالحين والاعتصام ،

(١٥٥) مجموع الفتاوى / ابن تيمية - ج١- ص ٢١١-٢١٢.

وانظر – إن شئت – إلى بردة البوصيري وما حوته من شرك مقيت حين يقول :

يا أكرم الخلق من لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلى باسم منتقم
فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن في معادي آخذا بيدي ... فضلا والا فقل يا زلة القدم (١٥٦)

ويقول البرعى :

يا سيدي يا رسول الله يا أملى ... يا موئلي وملاذي يوم يلقاني
هبني بجاهك ما قدمت من ذلك ... جودا ورجح بفضل منك ميزاني
واسمع دعائي واكشف ما يساورني ... من الخطوب ونفس كل أحزاني
فأنت أقرب من ترجى عواطفه ... عندي وان بعدت دارى وأوطاني.
(١٥٧)

ويقول أيضا :

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... فى كل هول من الأهوال ألقاه
إن كان زارك قوم لم أزر معهم ... فإن عبدك عاقته خطاياه (١٥٨)

(١٥٦) بردة المديح / للبوصيرى – ص ٣٥. – مطبعة المشهد الحسيتى – بدون .
(١٥٧) ديوان عبد الرحيم البرعى – ص ٢٥– ط١ – دار المكتبة الثقافية – بيروت – ١٣٨٩هـ
(١٥٨) السابق – ص ١٤ .

فتأمل قوله : فإن عبدك ، وقوله خذ بيدي ، وسوف اترك لأهل العلم التعليق على مثل هذه الأقوال :

يقول الشيخ عبد الرحمن حسن آل الشيخ عن مثل هذه الأبيات :

الأبيات التي مضمونها : إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات وأعظم الاضطرار لغير الله ، فناقضوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة ، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة ، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي – صلى الله عليه وسلم – وتعظيمه وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه ، وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي ، وفرطوا في متابعته فلم يعبأوا بأقواله وأفعاله ، ولا رضوا بحكمه ، ولا سلموا له ، وانما يحصل تعظيم الرسول – صلى الله عليه وسلم– بتعظيم أمره ونهيه ، والاهتداء بهديه ، واتباع سنته ، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونصرته ، وموالاة من عمل به ، ومعاداة من خالفه ، فعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علما وعملا ، وارتكبوا ما نهى عنه ورسوله. (١٥٩)

ويقول فى موضع آخر :

فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك :

منها : أنه نفى أن يكون له ملاذ إذا حلت به الحوادث إلا النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له ، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو .

---

(١٥٩) فتح المجيد / عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ – ج١– ص ٢١٥.

الثاني : أنه دعاه وناداه بالتضرع واظهار الفاقة والاضطرار إليه وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله ، وذلك هو الشرك في الإلهية .

الثالث : سؤاله منه أن يشفع له في قوله :

ولن يضيق رسول الله ....البيت

وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه ، وهو الجاه والشفاعة عند الله ، وذلك هو الشرك ، وأيضا فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فلا معنى لطلبها من غيره ، فإن الله – تعالى – هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لا أن الشافع يشفع ابتداء .

الرابع : قوله : فإن لي ذمة ... إلى أخره كذب على الله وعلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة لا بمجرد الإشراك في الاسم مع الشرك .

الخامس : قوله :إن لم يكن في معادي .... تناقض عظيم وشرك ظاهر ؛ فإنه طلب أولا أن لا يضيق به جاهه ، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلا واحسانا والا فيا هلاكه !!

فيقال : كيف طلبت منه أولا الشفاعة ثم طلبت منه هنا أن يتفضل عليك ؟

فان كنت تقول : إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فكيف تدعو النبي – صلى الله عليه وسلم – وترجوه وتسأله الشفاعة ، فهلا سألتها ممن له الشفاعة إلا من بعد إذنه ، فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله.

وان قلت : ما أريد إلا جاهه وشفاعته بإذن الله

قيل : فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك في يوم الدين ، فهذا مضاد لقوله – تعالى – :

{ وما أدراك ما يوم الدين{١٧} ثم ما أدراك ما يوم الدين{١٨} يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله{١٩}

فكيف يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذا وهذا ؟

وان قلت : سألته أن يأخذ بيدي ويتفضل علي بجاهه وشفاعته

قيل عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله ، وذلك هو محض الشرك .

السادس : في هذه الأبيات من النبري من الخالق تعالى وتقدس والاعتماد على المخلوق في حوادث الدنيا والآخرة مالا يخفى على مؤمن ، فأين هذا من قول الله :

{ إياك نعبد وإياك نستعين } **(سورة الفاتحة /الآية :٥)**

وقوله :

{ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم } **(سورة التوبة/ الآية : ١٢٩)**

قوله :

{ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا } **(الفرقان/ الآية :٥٨**

وقوله :

{ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا{٢١} قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا{٢٢} إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} (سورة الجن / الآيتان : ٢١- ٢٢) (١٦٠)

٢ - التوسل بآثار النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وقد ابتدع قوم طريقة جديدة للتوسل فقالوا بمشروعية التبرك بآثار النبي – صلى الله عليه وسلم – والتوسل بها فللمتوسل أن يقول – بزعمهم – اللهم إني أسألك بعمامة نبيك ، أو بشعرة نبيك ، أو بعرقه أن تعطيني كذا وكذا ، وبعض الدراويش يحتفظ بشعرة فى زجاجة ويوهم الدهماء أنها من شعر النبي – صلى الله عليه وسلم – وأن من تبرك بها ازداد بركة ، ومن توسل بها نال مراده وغير ذلك من الخرافات ، والعجيب أنك ترى ممن ينتسب إلى العلم من يقول بهذا ويجيزه ، ويدعو الناس إليه ، كما قال الشيخ الألبانى – رحمه الله – فى كتابيه التوسل ودفاع عن الحديث وهو يرد على الشيخ البوطي الذى يجيز هذا النوع من التوسل :

ابتدعها وروجها الدكتور البوطي ذاته إذ قرر في كتابه : (فقه السيرة ص ٣٤٤ – ٤٥٥) خلال حديثه عن الدروس المستفادة من غزوة الحديبية

(١٦٠) تيسير العزيز الحميد / سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب – ج١ – ص ١٨٧– ١٨٩.

مشروعية التبرك بآثار النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم قاس على ذلك التوسل بذاته بعد وفاته ، وأتى نتيجة لذلك برأي غريب وعجيب لم يقل به أحد من المشتغلين بالعلم حتى من المغرقين في التقليد والجمود والتعصب والابتداع في الدين ، ولكي لا يظن أحد أننا نتقول عليه أو نظلمه ننقل نص كلامه بتمامه ونعتذر إلى القراء لطوله قال :

" ولذا علمت أن التبرك بالشيء إنما هو طلب الخير بواسطته ووسيلته علمت أن التوسل بآثار النبي – صلى الله عليه وسلم – أمر مندوب إليه ومشروع ، فضلا عن التوسل بذاته الشريفة وليس ثمة فرق بين أن يكون ذلك في حياته – صلى الله عليه وسلم – أو بعد وفاته ؛ فآثار النبي – صلى الله عليه وسلم – وفضلاته لا تتصف بالحياة مطلقا سواء تعلق التبرك والتوسل بها في حياته أو بعد وفاته ، ولقد توسل الصحابة بشعراته من بعد وفاته كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فقد ضل أقوام لم تشعر أفئدتهم بمحبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وراحوا يستنكرون التوسل بذاته – صلى الله عليه وسلم – بعد وفاته بحجة أن تأثير النبي– صلى الله عليه وسلم – قد انقطع بوفاته فالتوسل به إنما هو توسل بشي لا تأثير له البتة ، وهذه حجة تدل على جهل عجيب جدا ، فهل ثبت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – تأثير ذاتي في الأشياء في حال حياته حتى نبحث عن مصير هذا التأثير من بعد وفاته ؟

إن أحدا من المسلمين لا يستطيع أن ينسب أي تأثير ذاتي في الأشياء لغير الواحد الأحد ومن اعتقد خلاف ذلك يكفر بإجماع المسلمين كلهم ، فمناط التبرك والتوسل به أو بآثاره -صلى الله عليه وسلم - ليس هو إسناد أي تأثير إليه ، ولنما المناط كونه أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق ، وكونه رحمة من الله للعباد، فهو التوسل بقربه- صلى الله عليه وسلم - إلى ربه وبرحمته الكبرى للخلق ، وبهذا المعنى توسل الأعمى به صلى الله عليه وسلم في أن يرد عليه بصره فرده الله عليه وبهذا المعنى كان الصحابة يتوسلون بآثاره وفضلاته دون أن يجدوا منه أي إنكار . وقد مر بيان استحباب الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى وأهل بيت النبوة في الاستسقاء وغيره ، وأن ذلك مما أجمع عليه جمهور الأئمة والفقهاء بما فيهم الشوكانى وابن قدامة وا لصنعاني وغيرهم . والفرق بعد هذا بين حياته وموته - صلى الله عليه وسلم - خلط عجيب وغريب في البحث لا مسوغ له.

ولنا على هذا الكلام مؤاخذات كثيرة نورد أهما فيما يلي

إنه قد خلط في كلامه السابق بين الحق والباطل خلطا عجيبا فاستدل بحقه على باطله ؛ فوصل من جراء ذلك إلى رأي لم يسبقه أحد من العالمين ، ولذا أردنا أن نميز بين نوعي كلامه فإننا نقول :

إن الحق الذي تضمنه هو :أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قريب إلى الله - تبارك وتعالى - ، وأنه كان رحمة من الله - تعالى - للخلق .

ب – أنه لا تأثير لأحد حتى للنبي – صلى الله عليه وسلم – تأثيرا ذاتيا في الأشياء ، وانما التأثير كله لله الواحد الأحد .

ج – أنه يشرع التبرك بآثار النبي – صلى الله عليه وسلم – وأن الصحابة فعلوا ذلك في حياته – صلى الله عليه وسلم – وبإقرار منه .

هذه النقاط الثلاثة صحيحة لا خلاف فيها ، ولو وقف الكاتب عندها لما كان ثمة حاجة للتعليق عليه .

وأما الباطل الذي تضمنه كلامه وفيه الخلاف العريض فهو :

آ – أن التوسل بآثار النبي – صلى الله عليه وسلم – جائز ، وأن الصحابة كانوا يتوسلون بآثاره – صلى الله عليه وسلم – وفضلاته .

ب – تسويته بين التبرك والتوسل .

ج – أن التوسل بذاته – صلى الله عليه وسلم – جائز كجواز التبرك بفضلاته .

هـ – جهلة بمعنى كلمة الاستشفاع مما حمله على الاستدلال بها على التوسل المبتدع .

و – افتراؤه على السلفيين بأنهم يرون أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان له تأثير ذاتي في الأشياء خلال حياته ، وقد انقطع ذاك التأثير بوفاته ، وأن هذا هو سبب إنكارهم التوسل به – صلى الله عليه وسلم – بعد وفاته .

ز – ادعاؤه أن الأعمى توسل بقربه – صلى الله عليه وسلم – من ربه .

وننتقل بعد هذا الإجمال إلى الشرح والتفصيل فنقول :

يشرع للمسلم أن يتوسل في دعائه باسم من أسماء الله – تبارك وتعالى – الحسنى مثلا ، ويطلب بها تحقيق ما شاء من قضاء حاجة دنيوية كالتوسعة في الرزق ، أو أخروية كالنجاة من النار فيقول مثلا : اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بأنك أنت الله الأحد الصمد أن تشفيني أو تدخلني الجنة . . ولا أحد يستطيع أن ينكر عليه شيئا من ذلك ، بينما لا يجوز لهذا المسلم أن يفعل ذلك حينما يتبرك بأثر من آثاره – صلى الله عليه وسلم – فهو لا يستطيع ولا يجوز له أن يقول مثلا : اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بثوب نبيك أو بصاقه أو بوله أن تغفر لي وترحمني . . ، ومن يفعل ذلك فإنه يعرض نفسه من غير ريب ليشك الناس في عقله وفهمه ، فضلا عن عقيدته ودينه ، وظاهر كلام الدكتور البوطي أنه يجيز هذا التوسل العجيب ، ويعده هو والتبرك بأثر من آثار النبي – صلى الله عليه وسلم – شيئا واحدا ، وهو بهذا يخلط خلطا قبيحا ، ومع ذلك لا يخجل من اتهام السلفيين بأنهم يخلطون خلطا عجيبا لا مسوغ له ، فقد علم القراء من الذي يخلط ويخبط خبط عشواء

إن هذا ليذكرنا حقا بالمثل العربي القائل : رمتني بدائها وانسلت . وصدق النبي الكريم – – صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

(إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت (١٦١)

---

(١٦١) البخارى (كتاب) الأدب (باب) إذا لم تستح فاصنع ما شئت – ج ٥ – ص ٢٢٦٨– برقم ٥٧٦٩.

إن ما ثبت فى صحيح البخارى لم يكن توسلا من الصحابة بشعره أو بعرقه- صلى الله عليه وسلم - ، بل كان تبركا ، وكان فى حياته - صلى الله عليه وسلم - وفرق بين التبرك والتوسل فعن أنس :

أن أم سليم كانت تبسط للنبي - صلى الله عليه وسلم - نطعا فيقيل عندها على ذلك النطع ، قال : فإذا نام النبي - صلى الله عليه وسلم - أخذت من عرقه وشعره فجمعته في قارورة ، ثم جمعته في سك ، قال : فلما حضر أنس بن مالك الوفاة أوصى إلي أن يجعل في حنوطه من ذلك السك قال : فجعل في حنوطه. (١٦٢)

فلم يثبت أن الصحابة توسلوا بآثاره - صلى الله عليه وسلم - ومن قال بذلك فعليه الدليل ؛ لأن الأصل فى العبادات التوقف حتى يرد الدليل بالتشريع ، وأنما تبركوا بآثاره ، وفرق بين الأمرين ، وأين هى آثاره اليوم ونكون فى طليعة من يتبرك بها ؟

وأشير كذلك إلى أمر فى تلك المسألة أراه ذا بال وهو أن النبى - صلى الله عليه وسلم - ترك أصحابه يبتدرون وضوءه ويتمسحون بآثاره لا لأنه يحب ذلك منهم ، بل - والله أعلم - ليرهب أعدائه ، و يبلغهم رسالة مفادها : أن أصحابه لن يسلموه ولو تخطفتهم الطير

(١٦٢) متفق عليه : البخارى (كتاب) الاستئذان (باب) من زار قوما فقال عندهم - ج٥ - ص ٢٣١٦ - برقم ٥٩٢٥ - ومسلم (كتاب) الفضائل (باب) طيب عرق النبى - صلى الله عليه وسلم - والتبرك به - ج٤ - ص ١٨١٥ .برقم ٢٣٣١.

، وأنهم قوة تتصاغر إلى جوارها كل قوة ، قوة لها قائد يحركها كيفما يشاء وهى تمتثل أمره بحب واستباق ، ويؤكد ذلك أن النبى – صلى الله عليه وسلم – أرشد أصحابه بعد الحديبية إلى ما هو خير من التبرك ، أرشدهم إلى العمل الصالح من صدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الجوار ، فعن عبد الرحمن بن قراد أن النبي – صلى الله عليه وسلم – توضأ يوما ، فجعل أصحابه يتمسحون بوضوئه ، فقال لهم النبي – صلى الله عليه وسلم – :

ما يحملكم على هذا ؟

قالوا : حب الله ورسوله .

فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – :

" من سره أن يحب الله ورسوله ، أو يحبه الله ورسوله فليصدق فى حديثه ، وليؤد أمانته إذا اؤتمن ، وليحسن جوار من جاوره . (١٦٣)

قال الألبانى – رحمه الله – :

إننا نرى أن التوسل بآثار النبى غير مشروع البتة ، وأن من الافتراء على الصحابة – رضوان الله عليهم – الادعاء بأنهم كانوا يتوسلون بتلك الآثار ، ومن ادعى خلاف رأينا فعليه الدليل بأن يثبت أن الصحابة كانوا يقولون فى دعائهم مثلا : اللهم ببصاق نبيك اشف مرضانا ، اللهم ببول نبيك أو غائطه أجرنا من النار !!

(١٦٣) قال الألبانى : وهو حديث ثابت له طرق شواهد فى معجمي الطبراني وغيرهما ، وقد أشار المنذرى إلى تحسينه ، وقد خرجته فى السلسلة الصحيحة برقم ٢٩٩٨.

إن أحدا من العقلاء لا يستسيغ رواية ذلك مجرد رواية فكيف باستعماله ؟ ...

هذا ولابد من الإشارة إلى أننا نؤمن بجواز التبرك بآثاره – صلى الله عليه وسلم ، ولا ننكره خلافا لما يوهمه صنيع خصومنا ، ولكن لهذا التبرك شروطا منها :الإيمان الشرعي المقبول عند الله فمن لم يكن مسلما صادق الإسلام فلن يحقق الله له أي خير بتبركه هذا ، كما يشترط للراغب فى التبرك أن يكون حاصلا على أثر من آثاره – صلى اله عليه وسلم – ويستعمله ، ونحن نعلم أن آثاره – صلى اله عليه وسلم – من ثياب أو شعر أو فضلات قد فقدت ، وليس بإمكان أحد إثبات وجود شئ منها على وجه القطع واليقين ، واذا كان الأمر كذلك فإن التبرك بهذه الآثار يصبح أمرا غير ذي موضوع فى زماننا هذا ، ويكون أمرا نظريا محضا ، فلا ينبغى إطالة القول فيه

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – :

ما حكم التوسل بالنبي عليه الصلاة والسلام ؟

فقال – رحمه الله – :التوسل بالنبي – صلى الله عليه وسلم – أقسام :

أولا أن يتوسل بالإيمان به ، فهذا التوسل صحيح مثل أن يقول : اللهم إني آمنت بك وبرسولك فاغفر لي ، وهذا لا بأس به ، وقد ذكره الله – تعالى – في القرآن الكريم في قوله {ربنا إننا سمعنا منايا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار } ولأن الإيمان بالرسول– صلى الله عليه وسلم – وسيلة شرعية لمغفرة الذنوب وتكفير السيئات ، فهو قد توسل بوسيلة ثابتة شرعا .

ثانيا أن يتوسل بدعائه – صلى الله عليه وسلم – أي بأن يدعو للمشفوع له ، وهذا أيضا جائز وثابت ، لكنه لا يمكن أن يكون إلا في حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد ثبت عن عمر – رضي الله عنه– أنه قال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، وأمر العباس أن يقوم فيدعو الله – سبحانه وتعالى– بالسقيا ، فالتوسل في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – بدعائه هذا جائز ولا بأس به .

ثالثا : أن يتوسل بجاه الرسول – صلى الله عليه وسلم – سواء في حياته أو بعد مماته فهذا توسل بدعي لا يجوز ؛ وذلك لأن جاه الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا ينتفع به إلا الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعلى هذا فلا يجوز للإنسان أن يقول : اللهم إني أسألك بجاه نبيك أن تغفر لي أو ترزقني ـــــــــ الشيء الفلاني ؛ لأن الوسيلة لا بد أن تكون وسيلة ، والوسيلة مأخوذة من الوسل بمعنى الوصول إلى الشيء ، فلا بد أن تكون هذه الوسيلة موصلة إلى الشيء ، واذا لم تكن موصلة إليه فإن التوسل بها غير مجد ولا نافع ، وعلى هذا فنقول التوسل بالرسول – عليه الصلاة والسلام – ثلاثة أقسام : القسم الأول : أن يتوسل بالإيمان به واتباعه ، وهذا جائز في حياته وبعد مماته .

القسم الثاني : أن يتوسل بدعائه : أي بأن يطلب من الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يدعو له فهذا جائز في حياته لا بعد مماته ؛ لأنه بعد مماته متعذر .

القسم الثالث : أن يتوسل بجاهه ومنزلته عند الله ، فهذا لا يجوز لا في حياته ولا بعد مماته ؛ لأنه ليس وسيلة ، إذ أنه لا يوصل الإنسان إلى مقصوده ؛ لأنه ليس من عمله ، فإذا قال قائل :

جئت إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام – عند قبره وسألته أن يستغفر لي أو أن يشفع لي عند الله فهل يجوز ذلك أو لا ؟

قلنا : لا يجوز .

فإذا قال : أليس الله يقول :

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً } (النساء٦٤/ الآية :٦٤)

قلنا له : بلى إن الله يقول ذلك ، ولكن يقول " ولو أنهم إذ ظلموا" ،واذ هذه ظرف لما مضى ، وليست ظرفا للمستقبل ، لم يقل الله :ولو أنهم إذا ظلموا بل قال " إذ " ظلموا ، فالآية تتحدث عن أمر وقع في حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – واستغفار الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد مماته أمر متعذر ؛ لأنه إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث كما قال الرسول– صلى الله عليه وسلم– : " صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " فلا يمكن لإنسان بعد موته أن يستغفر لأحد ، بل ولا يستغفر لنفسه أيضا؛ لأن العمل انقطع . (١٦٤)

---

(١٦٤) فتاوى مهمة / للشيخين ابن باز وابن عثيمين – رحمهما الله – ج١ – ص ٩٩– ١٠٢.

٣- ما الأدلة التى اعتمد عليه المبيحون للتوسل بغير الأنواع الثلاثة المشروعة التى ذكرناها ؟

لقد اعتمد المبيحون للتوسل بذات النبى - صلى الله عليه وسلم - وجاهه على جملة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والتى لا تقوم بها الحجة ؛ لأنها لا تثبت بحال ،وسوف أورد أشهر ما اعتمدوا عليه ، وأذكر أقوال علماء الحديث فيه حتى يبين الصبح لذى عينين ، ومن هذه الأحاديث :

الحديث الأول :

حديث البخارى فى استسقاء عمر بالعباس فى محضر من الصحابة ، وقد مر ذكره من قبل ، والحق أن الحديث حجة عليهم لا لهم ؛ إذ لو كان التوسل بذات النبى - صلى الله عليه وسلم - أو كان دعاؤه فى قبره جائزا لفعله الفاروق عمر والصحابة معه ، ولكنهم لم يفعلوا بل قالوا كما جاء فى الحديث : " اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال : فيسقون . (١٦٥)

والمعنى : اللهم أنا كنا نتوسل إليك بدعاء نبينا فى حياته ، أما وقد انتقل نبينا إلى جوارك الكريم ، ولا دعاء له بعد موته ، ونحن نؤمن بعدم جواز دعائه ولا التوسل به بعد موته فنتوسل إليك بدعاء عم نبينا فاسقنا .

(١٦٥) البخاري(كتاب) الاستسقاء (باب) سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا - ج١ - ص ٣٤٢- برقم ٩٦٤

قال ابن تيمية : والواقع أن هذا الصنيع من أمير المؤمنين عمر – رضى اله عنه – ومن الصحابة الكرام – رضى الله عنهم – لا يدل على ما ذهبوا إليه البتة ، بل يدل على خلاف ما ذهبوا إليه : وهو عدم مشروعية هذا النوع من التوسل ؛ لأنه لو كان التوسل هو بذاته – صلى الله عليه وسلم – لكان هذا أولى من التوسل بالعباس ، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس علم أن ما يفعله فى حياته قد تعذر بعد موته . (١٦٦)

وقد كان استسقاء الصحابة بالعباس – رضى الله عنه – من جنس استسقائهم بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو طلب الدعاء منه ليس أكثر من ذلك ، وقد أكد ابن حجر – رحمه الله – ذلك وحسمه بما رواه عن الزبير بن بكار فى الفتح فقال : وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك ، فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال :

اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث ؛ فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض ، وعاش الناس. (١٦٧)

الحديث الثانى : عن عثمان بن حنيف : أن رجلا ضريرا أتى النبي– صلى الله عليه وسلم – فقال : يا نبي الله ادع الله أن يعافيني .

---

(١٦٦) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة / ابن تيمية – ص ٥٦ – مكتبة دار البيان – دمشق – ط١ – ١٤٠٥هـ .

(١٦٧) فتح الباري / ابن حجر – ج٢– ص ٤٩٧.

فقال : إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك ، وان شئت دعوت لك .

قال : لا بل ادع الله لي .

فأمره أن يتوضأ ، وأن يصلي ركعتين ، وأن يدعو بهذا الدعاء ك

" اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد – صلى الله عليه وسلم – نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى ، وتشفعني فيه وتشفعه في"

قال : فكان يقول هذا مرارا ، ثم قال بعد أحسب أن فيها : أن تشفعني فيه .

قال : ففعل الرجل فبرأ . (١٦٨)

يحتج المجيزون للتوسل بذات النبي – صلى الله عليه وسلم – بهذا الحديث ، ويقولون : إن الأعمى لما توسل بذات النبى الكريم برأ وعاد إليه بصره ، والجواب أن ما حدث لم يكن توسلا بذات النبى ، وانما كان توسلا بدعائه – صلى الله عليه وسلم – بدليل قوله فى الحديث : " ادع الله أن يعافيني" فالرجل ما جاء ليتوسل بذات بالنبي ، بل جاء ليدعو له النبي ، أي : ليتوسل بدعاء النبى ؛ لأن دعاءه – صلى الله عليه وسلم – أرجى للقبول وذلك كما أسلفنا من التوسل المشروع ، ولو كان قصد الرجل التوسل بذاته أو بجاهه – صلى الله عليه وسلم – وكان ذلك مشروعا لما تكبد الرجل مشقة المجئ ، ولقعد فى بيته ودعا الله قائلا : اللهم إني أسألك بذات أو بجاه نبيك أن تشفيني وترد على بصري .

(١٦٨) الترمذي فى السنن برقم ٣٥٣٢– والنسائي فى الكبرى برقم ١٠٠٤٢– أحمد فى المسند برقم ١٧٢٨٠ – والحاكم فى المستدرك برقم ١١١٦ وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات .

- وكذلك فقد بين له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الصبر على ذلك الابتلاء خير له من الدعاء ، ولكن الرجل أصر على الدعاء وقال : ادعه .

- وكذلك فقد وجهه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى العمل الصالح وهو النوع الثانى من أنواع التوسل المشروع ،فأمره بالوضوء والصلاة والدعاء .

- ثم تأمل تعليمه - عليه الصلاة والسلام - له أن يدعو قائلا : اللهم فشفعه فيَّ ، والمعنى الله اقبل شفاعته أي : دعاءه فى أن ترد عليَّ بصري .

- ثم قوله : " وشفعني فيه " وهى الزيادة التى لا ذكر لها البتة عند من يقولون بجواز التوسل بالذات ، وذلك لأن هذا الزيادة التى يتغافلون عنها عمدا تأتى على بنيانهم من القواعد ؛ والسبب أن معناها : اللهم اقبل دعائي فى أن تقبل دعاءه . (١٦٩)

الحديث الثالث :

عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا : " من قال حين يخرج إلى الصلاة : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي ؛ فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ، ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ؛ وكلَ الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له ، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يفرغ من صلاته. (١٧٠)

(١٦٩) راجع ما قاله الشيخ الألبانى حول هذا الحديث فى كتاب التوسل ص ٧٦- ٨٣ .

(١٧٠) ابن ماجه (كتاب) المساجد والجماعات (باب) المشي للصلاة - ج١- ص ٢٥٦- برقم ٧٧٨. وأحمد فى المسند - ج٣ - ص ٢١- يرقم ١١١٧٢. وقال شعيب الأرنؤوط ضعيف

واستدلالهم بالحديث مردود لسببين :

الأول : أن الحديث ضعيف ضعفه الألبانى الأرنؤوط وغيرهما ،وذلك لان في سنده عطية العوفي وهو ضعيف (١٧١)

وقد قال عنه ابن حجر : صدوق يخطئ كثيرا كان شيعيا مدلسا. (١٧٢)

الثانى : أنه على فرض صحة الحديث فليس فيه توسل غير مشروع ، بل هو توسل بالعمل الصالح .

الحديث الرابع :

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– قال : قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم –

: لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي .

فقال الله : يا آدم و كيف عرفت محمدا و لم أخلقه ؟

قال : يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ، و نفخت في من روحك ، و رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا " لا إله إلا الله محمد رسول الله " فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق .

فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي ، ادعني بحقه فقد غفرت لك ، و لولا محمد ما خلقتك . (١٧٣)

---

(١٧١) الضعفاء والمتروكين – أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي – ج١ – ص ٨٥– دار الوعي – حلب – ط١– ١٣٦٩.

(١٧٢) تقريب التهذيب –ابن حجر العسقلانى – ج ا – ص ٣٩٣ – دار الرشيد – سوريا – ط١ – ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م

(١٧٣) الحاكم فى المستدرك ٤١٦٩– و البيهقي فى دلائل النبوة ٢٢٥١

والجواب على هذا الدليل من وجهين :

الأول : أن هذا الحديث موضوع وقد رواه الحاكم فى المستدرك وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولكن تتبعه الذهبي فى التلخيص وقال : بل موضوع ، وقال الشيخ الألبانى فى السلسلة الضعيف : موضوع . (١٧٤)

الثانى :أن هذا الحديث مخالف للقرآن ح وذلك لان الذى أثبته القرآن أن الله – عز وجل – أنما غفر لآدم لا بحق محمد – صلى الله عليه وسلم – بل بكلمات تلقاها من ربه فتاب عليه كما قال ربنا – عز وجل – :{ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (سورة البقرة/ الآية : ٣٧)

فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس:{ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه } قال : أي رب ألم تخلقني بيدك ؟

قال : بلى .

قال : أي رب ألم تنفخ في من روحك ؟

قال : بلى .

قال : أي رب ألم تسكني جنتك ؟

قال : بلى .

قال : أي رب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟

قال : بلى .

قال : أرأيت إن أنا تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة ؟

(١٧٤) السلسلة الضعيفة / الألباني – ج١ – ص ٨٨.

قال : نعم .

قال : فهو قوله : { فتلقى آدم من ربه كلمات} (١٧٥)

الحديث الخامس :

" إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم "

وهو حديث كذب لا يثبت عن النبي – صلى الله عليه وسلم بحالة، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله على هذا الدليل فقال :

وروى بعض الجهال عن النبى أنه قال : " إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم " وهذا الحديث كذب ليس فى شىء من كتب المسلمين التى يعتمد عليها أهل الحديث ، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث مع أن جاهه عند الله – تعالى– أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين . (١٧٦)

وقال الألبانى فى السلسلة الضعيفة ك لا اصل له . (١٧٧)

وبذلك يثبت لنا أن التوسل المشروع ينحصر فى الأنواع الثلاثة التى ذكرناها فى أول هذا البحث وهى :

- التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.
- التوسل بالعمل الصالح .
- التوسل بدعاء الصالحين .

وما عدا ذلك من التوسل بجاه أو حق أو آثار أحد فتوسل غير مشروع ولا يصح ، ولا برهان لمن قال به .

---

(١٧٥) جامع البيان م الطبري – ج١ – ص ٢٨٠ .

(١٧٦) مجموع الفتاوى – ج١ – ص ٣١٩ .

(١٧٧) السلسلة الضعيفة / للألباني – ج١ – ص ٧٦

المبحث السابع

القصور والخطأ في مفهوم القضاء والقدر .

ومن صوره :

١- الاحتجاج بالقدر على المعائب .

٢- الاستسلام للواقع السيئ وترك الأسباب بحجة القضاء والقدر .

أولا : مفهوم الأيمان بالقضاء والقدر

إن الأيمان بالقضاء والقدر ركن ركين من أركان الإيمان بالله لا يصح إيمان المسلم إلا به

بدليل حديث الإيمان والذى جاء فيه : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . (١٧٨)

وقال ربنا – جل وعلا :

{ و لَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}

(سورة الأنعام/ الآية ١١١)

وقال – عز وجل – :

{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } **(سورة القمر/ الآية :٤٩)**

وقال ربنا :

{ولَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

(سورة النحل/ الآية :٩٣)

(١٧٨) متفق عليه : البخارى (كتاب) الإيمان (باب) سؤال جبريل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة – ج ١ – ص ٢٧ – برقم ٥٠ – ومسلم (كتاب) الإيمان (باب) بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله – سبحانه وتعالى – ج١ –ص ٣٦– برقم ٨ .

وقال ربنا :

{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }

(سورة النحل/ الآية :٤٠)

وقال ربنا- جل وعلا - :

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } **(سورة يونس/ الآية :٩٩)**

وقال - سبحانه :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً }

(سورة الفرقان/الآية :٤٥)

قال ابن حجر - رحمه الله - : القدر مصدر ، تقول : قَدَرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أَقْدِره بالكسر والفتح قَدْراً وقَدَراً ، إذا أحطت بمقداره . (١٧٩) .

والقدر في اللغة

القضاء والحكم ومبلغ الشيء ، والتقدير التروية والتفكر في تسوية الأمر . (١٨٠)

(١٧٩) فتح الباري / ابن حجر العسقلانى - ج١- ص١١٨/١ .

(١٨٠) القاموس المحيط / الفيروز آبادي :ص٥٩١ .

والقدر في الاصطلاح :

ما سبق به العلم ، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد ، وأنه – عز وجل – قدَّر مقادير الخلائق ، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل ، وعلم – سبحانه – أنها ستقع في أوقات معلومة عنده – تعالى – وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها . (١٨١)

وقال ابن حجر في تعريفه :

المراد أن الله – تعالى – علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد ، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وارادته . (١٨٢)

ونقل السفارينى عن الأشعرية أن القدر :

إيجاد الله – تعالى – الأشياء على قدر مخصوص ، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم .

وقال ابن باديس: القدر في اللغة هو الإحاطة بمقدار الشيء ، تقول : قدرت الشيء أقدره قدرا إذا أحطت بمقداره .

وقدر الله – تعالى – هو تعلق علمه وإرادته أزلا بالكائنات كلها قبل وجودها ، فلا حادث إلا وقد قدره الله – تعالى– أي سبق به علمه ، وتقدمت به إرادته ، فكل حادث فهو على وفق ما سبق به علم الله ومضت به إرادته ،

---

(١٨١) العقيدة السفارينية (الدرة المضية فى عقيدة أهل الفرقة المرضية) / محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفارينى – ج١ – ص ٣٤٨– مكتبة أضواء السلف – الرياض ط١ – ١٩٩٨م .

(١٨٢) فتح الباري / ابن حجر – ج١ – ص ١١٨.

لقوله – تعالى – :

{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } **(سورة القمر/ الآية :٤٩)** **(١٨٣)**

قال الدكتور / عمر سليمان الأشقر – حفظه الله –

وهذه التعريفات متقاربة فيما بينها ، وهي تفيد أن القدر يشمل أمرين :

الأول : علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجده ، وحدد صفات المخلوقات التي يريد إيجادها ، وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ بكلماته ، فالأرض والسماء أحجامهما وأبعادهما ، وطريقة تكوينهما ، وما بينهما وما فيهما كل ذلك مدون علمه في اللوح المحفوظ تدويناً دقيقاً وافياً .

والثاني : إيجاد ما قدر الله إيجاده على النحو الذي سبق علمه وجرى به قلمه ، فيأتي الواقع المشهود مطابقاً للعلم السابق المكتوب .

والقدر يطلق ويراد به التقدير السابق لما في علم الله ، ويطلق ويراد ما خلقه وأوجده على النحو الذي علمه . (١٨٤)

---

(١٨٣) العقائد الإسلامية / عبد الحميد بن باديس – ج١– ص ٧٣.

(١٨٤) سلسلة العقيدة (القضاء والقدر) / د. عمر سليمان الأشقر – ص٨ .

وقد سئل الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى – عن القدر فأجاب شعراً قائلاً:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ　　وما شئتَ إن تشأ لم يكـن
خلقتَ العباد على ما علمتَ　　ففي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ　　وهـذا أعنتَ وذا لم تعـن
فمنهم شقي ومنهم سعيد　　ومنهم قبيح ومنهم حسن (١٨٥)

أما بالقضاء

فهو : الفصل والحكم . وقد تكرر في أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – ذكر القضاء وأصله القطع والفصل . يُقال : قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ ، إذا حكم وفصل . وقضاء الشيء إحكامه ولمضاؤه والفراغ منه ، فيكون بمعنى الخلق .

وقال الزهري :

القضاء في اللغة على وجوه ، مرجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه ، وكل ما حكم عمله ، أو أُتمّ ، أو أُدِّى ، أو أُوجب ، أو عُلِم ، أو نُفِّذ ، أو أُمضى ، فقد قضي وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الأحاديث . (١٨٦)

---

(١٨٥) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف / أحمد بن الحسين البيهقي – تحقيق /أحمد عصام الكاتب – ج١ – ص ١٦٢ – دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط١ – ١٤٠٧هـ

(١٨٦) النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير – ج– ٤ص ٧٨– تحقيق :طاهر الزاوي – محمود الطناحي – دار إحياء الكتب العربية – ط١ – ١٣٨٣هـ .

وللعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان :

الأول : القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل ، والقدر وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق . يقول ابن حجر العسقلانى – رحمه الله تعالى– :

قال العلماء : القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل ، والقدر جزيئات ذلك الحكم وتفاصيله " (١٨٧)

وقال في موضع آخر : " القضاء الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل ، والقدر الحكم بوقوع الجزيئات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل . (١٨٨)

الثاني : عكس القول السابق ، فالقدر هو الحكم السابق ، والقضاء هو الخلق .

قال ابن بطال : " القضاء هو المقضي " (١٨٩)

إن الإيمان بالقدر يرتبط ارتباطا وثيقا مع الانقياد لأمر الله والامتثال لشرعه ، وامتثال شرع الله والانقياد لأمره مرتبط بالقدر لا ينفك أحدهما عن الآخر ؛ وذلك لأن الإيمان بالقدر مع الاحتجاج به على الشرع مخاصمة لله – عز وجل وطعن فى حكمته البالغة ، ونفى القدر والقول بان العبد يخلق فعله طعن فى الربوبية ،

---

(١٨٧) فتح الباري / ابن حجر العسقلانى– ج١١– ص٤٧٧ .

(١٨٨) فتح الباري ج١١– ص١٤٩ .

(١٨٩) فتح الباري ج١١– ص١٤٩ .

قال الشيخ حكمي – رحمه الله – :

والمقصود أن الإيمان بالقدر مرتبط بامتثال الشرع ، وامتثال الشرع مرتبط بالإيمان بالقدر ، وانفكاك أحدهما من الآخر محال ؛ فإن الإقرار بالقدر مع الاحتجاج به على الشرع ومحاربته به مخاصمة لله – تعالى – في أمره وشرعه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه ، وطعن في حكمته وعدله ، وانتقاد عليه في إرسال الرسل وانزال الكتب وخلق الجنة لأوليائه المصدقين بها وخلق النار لأعدائه المكذبين ، ونسبة لأحكم الحاكمين وأعدل العادلين الحكيم في خلقه وشرعه ، العدل في قوله وفعله وحكمه إلى العبث والظلم في ذلك كله

، وكذلك الانقياد في الشرع مع نفي القدر واخراج أفعال العباد عن قدرة الباري وجعلهم مستقلين بها مستغنين عنه طعن في ربوبية المعبود وملكوته ، ونسبته إلى العجز ، ووصفه بما لا يستحق الإلهية ولا يتصف بها مما لا يبدئ ولا يعيد ، ولا يغني عنك شيئا ، تعالى ربنا وتقدس وتنزه وجل وعلا عما يقول الظالمون الجاحدون الملحدون علوا كبيرا ، بل الإيمان بالقدر خيره وشره هو نظام التوحيد ، كما أن الإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره واستعانة الله عليها هو نظام الشرع ، ولا ينتظم أمر الدين ولا يستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل الشرع ، كما قرر النبي – صلى الله عليه وسلم – الإيمان بالقدر، ثم قال لما قيل له أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل :

لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له . (١٩٠)

(١٩٠) متفق عليه : البخاري (كتاب) القدر (باب) " وكان أمر الله قدرا مقدورا " ج٦– ص ٢٤٣٥– برقم ٦٢٣١– ومسلم (كتاب) البر والصلة (باب)كيفية خلق الآدمي فى بطن أمه – ج٤– ص ٢٠٣٩ –برقم ٢٦٤٧.

فمن نفى القدر رغم منافاته للشرع فقد عطل الله – تعالى – عن علمه وقدرته ومعاني ربوبيته ، وجعل العبد مستقلا بأفعاله خالقا لها ؛ فأثبت خالقا مع الله – تعالى – ، بل أثبت أن جميع المخلوقين خالقون ، ومن أثبته محتجا به على الشرع ، محاربا له به ، نافيا عن العبد قدرته واختياره التي منحه الله – تعالى – إياها وأمره ونهاه وأخبره بحسبها زاعما أن الله – تعالى – كلف عباده ما لا يطاق فقد نسب الله – تعالى– إلى الظلم والى العبث والى ما لا يليق به ، ورجح حجة إبليس وأثبتها ، وأقام عذره وكان هو إمامه في ذلك ، إذ يقول :

{قَبِما أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ }

(سورة الأعراف / الآية ١٦)

وأما المؤمنون حقا فيؤمنون بالقدر خيره وشره ، وأن الله – تعالى – خالق ذلك كله لا خالق غيره ولا رب سواه ، وينقادون للشرع أمره ونهيه ، ويصدقون خبر الكتاب والرسول ، ويحكمونه في أنفسهم سرا وجهرا ، وأن الهداية والإضلال بيد الله يهدي من يشاء بفضله رحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته ، وهو أعلم بمواقع فضله وعدله :

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} النجم:٣٠)

وله في ذلك الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وأن الثواب والعقاب مترتب على الشرع فعلا وتركا لا على القدر ، ويعزون أنفسهم بالقدر عند المصائب ، ولا يحتجون به على المعاصي والمعايب ، فإذا وقفوا لحسنة عرفوا الحق لأهله ،

فقالوا :{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** }

(سورة الأعراف : الآية :٤٢)

ولم يقولوا كما قال الفاجر :

{**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** } **(سورة القصص / الآية :٧٨)**

ولذا اقترفوا سيئة باءوا بذنبهم وأقروا به ، وقالوا كما قال الأبوان :

{**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** }

(سورة الأعراف/ الآية :٢٣)

ولم يحملوا ذنبهم وظلمهم على القدر ويحتجوا به عليه ، ولم يقولوا كما قال إبليس لعنه الله

{**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي**} **(سورة الأعراف /الآية :١٦)**

ولذا أصابتهم مصيبة رضوا بقضاء الله وقدره ، واستسلموا لتصرف ربهم ومالكهم – تبارك وتعالى – وقالوا كلمة الصابرين :

{ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** }

(سورة البقرة/ الآية :١٥٦)

ولم يقولوا كما قال

{ **الَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِنْدَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** }

(سورة آل عمران/ الآية :١٥٦) (١٩١)

(١٩١) معارج القبول / حافظ حكمي –ج ٣– ص٩٥٢–٩٥٣.

- إن استقراء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يدلنا على أن الإيمان بالقدر له أربعة أركان لابد من الإيمان بها حتى يكون إيماننا بالقدر صحيحا كاملا لا خلل فيه وهى :

الأول : الإيمان بعلم الله السابق المحيط بكل شئ ، كما قال ربنا :

{ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }

(سورة سبأ/ الآية :٣)

وقال - عز وجل - :

{ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ }

(سورة النجم / الآية :٣٢)

وقال - سبحانه - :

{ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }

(سورة الأنعام/ الآية :٢٨)

وهذه الآية تدل على علمه - سبحانه - لما لم يكن لو كان كيف يكون ، فهو يعلم أن الكفار الذين وقفوا على النار وطلبوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحا كاذبين ، وأنهم لو عادوا إلى الدنيا لرجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفران والعصيان .

الثانى : الإيمان بكتابة الله – عز وجل – كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فى اللوح المحفوظ ، كما قال – سبحانه – :

{ إِنَّا نَحنُ نُحيِي الْموتَى ونَكْتب ما قَدَّموا وآثَارهم وكُلَّ شيءٍ أَحصيناهُ في إِمامٍ مبِينٍ }

(سورة يس/ الآية :١٢)

وعن عبد الواحد بن سليم قال : قدمت مكة فلقيت عطاء بن رباح فقلت له : يا أبا محمد إن أهل البصرة يقولون في القدر .

قال : يا بني أتقرأ القرآن ؟

قلت : نعم .

قال : فأقرأ الزخرف .

قال : فقرأت **{ حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم }** **(الزخرف / ١–٤)**

فقال : أتدري ما أم الكتاب ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السموات ، وقبل أن يخلق الأرض ، وفيه : إن فرعون من أهل النار ، وفيه " تبت يدا أبي لهب وتب "

قال عطاء : فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فسألته : ما كان وصية أبيك عند الموت ؟

قال : دعاني أبي فقال لي :

يا بني اتق الله واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره فإن مت على غير هذا دخلت النار ، إني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول :

" إن أول ما خلق الله القلم ، فقال اكتب ، فقال ما أكتب ؟ قال اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد . (١٩٢)

الثالث : الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، كما قال ربنا – سبحانه وتعالى – :

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

(سورة النحل/ الآية :٩٣)

وقال ربنا :

{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }

(سورة النحل/ الآية :٤٠)

وقال ربنا – جل وعلا – :

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ }

(سورة يونس/ الآية :٩٩)

---

(١٩٢) (صحيح) الترمذى ج٣ – ص١٢٣– وأحمد فى المسند برقم ٢٢٧٥٩– ج٥ – ص ٣١٧ – وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم ١٣٣

الرابع : خلقه تبارك وتعالى لكل موجود ، لا شريك لله في خلقه ، كما قال ربنا – سبحانه :

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ } **(الأنعام/ الآية :١)**

وقال – عز وجل – :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً }

(سورة النساء/ الآية :١)

وكما قال ربنا– عز وجل – :

{ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } **(سورة الأنعام/ الآية :١٠٢)**

ثانيا : من صور الخلل والقصور فى مفهوم القدر

١- الاحتجاج بالقدر على المصائب

وقع خلل كبير فى مفهوم الإيمان بالقضاء والقدر ، ورأينا أقواما يحتجون بالقدر على معائبهم ومعاصيهم ، فيسرقون ويزنون ويشركون ، ثم يقولون : إن ما فعلناه واقترفناه كان بقضاء الله وقدره ولو شاء الله ألا نفعل ما فعلنا ، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هؤلاء الجهلاء فى أربع آيات فقال حكاية عنهم :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ﴾

(الأنعام/:١٤٨)

وقال ربنا – سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾

(النحل /:٣٥)

وقال – عز وجل – :

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }

(يس /:٤٧)

وقال ربنا – سبحانه وتعالى – :

{ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }

(سورة الزخرف / الآية :٢٠)

قال أبو جعفر :

يقول – جل ثناؤه – :

{سيقول الذين أشركوا } وهم العادلون بالله الأوثان والأصنام من مشركي قريش .

{ لو شاء الله ما أشركنا } يقول : قالوا احتجازا من الإذعان للحق بالباطل من الحجة لما تبين لهم الحق ، وعلموا باطل ما كانوا عليه مقيمين من شركهم وتحريمهم ما كانوا يحرمون من الحروث والأنعام على ما قد بين – تعالى ذكره – في الآيات الماضية قبل ذلك :

{ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا }

وما بعد ذلك : لو أراد الله منا الإيمان به وافراده بالعبادة دون الأوثان والآلهة وتحليل ما حرم من البحائر والسوائب وغير ذلك من أموالنا ما جعلنا لله شريكا ، ولا جعل ذلك له آباؤنا من قبلنا ، ولا حرمنا ما نحرمه من هذه الأشياء التي نحن على تحريمها مقيمون ؛

لأنه قادر أن يحول بيننا وبين ذلك حتى لا يكون لنا إلى فعل شيء من ذلك سبيل : إما بأن يضطرنا إلى الإيمان وترك الشرك به ، وإلى القول بتحليل ما حرمنا ، ولما بأن يلطف بنا بتوفيقه فنصير إلى الإقرار بوحدانيته وترك عبادة ما دونه من الأنداد والأصنام وإلى تحليل ما حرمنا ، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الأوثان والأصنام واتخاذ الشريك له في العبادة والأنداد ، وأراد ما نحرم من الحروث والأنعام فلم يحل بيننا وبين ما نحن

عليه من ذلك .

قال الله مكذبا لهم في قيلهم : إن الله رضي منا ما نحن عليه من الشرك وتحريم ما نحرم ، ورادا عليهم باطل ما احتجوا به من حجتهم في ذلك : { **كذلك كذب الذين من قبلهم** } يقول : كما كذب هؤلاء المشركون يا محمد ما جئتهم به من الحق والبيان كذب من قبلهم من فسقة الأمم الذين طغوا على ربهم ما جاءتهم به أنبياؤهم من آيات الله وواضح حججه ، وردوا عليهم نصائحهم .

{**حتى ذاقوا بأسنا** } يقول : حتى أسخطونا فغضبنا عليهم فأحللنا بهم بأسنا فذاقوه فعطبوا بذوقهم إياه فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة يقول : وهؤلاء الآخرون مسلوك بهم سبيلهم إن هم لم ينيبوا فيؤمنوا ويصدقوا بما جئتهم به من عند ربهم . (١٩٣)

(١٩٣) جامع البيان / ابن جرير الطبرى - ج٥- ص ٣٨٦.

وقال ابن كثير :

هذه مناظرة ذكرها الله – تعالى – وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا ، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره ، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ولهذا قالوا :

{ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء }

كما في قوله – تعالى

{ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم } **(سورة الزخرف / الآية : ٢٠)** ،

وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه سواء. (١٩٤)

قال الله – تعالى – : { **كذلك كذب الذين من قبلهم** } أي : بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء ، وهي حجة داحضة باطلة ؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام .

{ **قل هل عندكم من علم** } أي : بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه.

{ **فتخرجوه لنا** } أي فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه .

{ **إن تتبعون إلا الظن** } أي الوهم والخيال ، والمراد بالظن هاهنا الاعتقاد الفاسد.

{ **وان أنتم إلا تخرصون** } تكذبون على الله فيما ادعيتموه .

(١٩٤) يقصد قول الله – تعالى – :

{قال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين } (سورة النحل/ الآية :٣٥)

قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس :

{ لو شاء الله ما أشركنا } وقال :**{ كذلك كذب الذين من قبلهم }** ، ثم قال : **{ ولو شاء الله ما أشركوا }** فإنهم قالوا : عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى ، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم فقوله :**{ ولو شاء الله ما أشركوا }** يقول - تعالى - : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين .

وقوله - تعالى- : **{ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين }** يقول - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : { قل } لهم يا محمد { فلله الحجة البالغة } أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى واضلال من ضل .

{ فلو شاء لهداكم أجمعين } فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره ، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ، ويبغض الكافرين ، كما قال - تعالى - :

{ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى } **(سورة الأنعام / الآية :٣٥)**

وقال - تعالى-:

{ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض } **(سورة يونس / الآية :٩٩)**

وقوله:

{ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}

(سورة هود / الآيتان :١١٨- ١١٩)

قال الضحاك :

لا حجة لأحد عصى الله ، ولكن لله الحجة البالغة على عباده وقوله – تعالى – : **{ قل هلم شهداءكم }** أي : أحضروا شهداءكم .

{ الذين يشهدون أن الله حرم هذا } أي : هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه .

{ فإن شهدوا فلا تشهد معهم } أي : لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا .

{ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون } أي : يشركون به ويجعلون له عديلا. (١٩٥)

وقال ربنا :

{ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} الزخرف/ الآية :٢٠)

قال ابن كثير – رحمه الله – :

أي : لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله ؛ فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ :– ،

أحدها : جعلهم لله – تعالى – ولدا ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا .

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا .

(١٩٥) تفسير القرآن العظيم / للحافظ ابن كثير – ج٢– ص ٢٥٠.

الثالث : عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله – عز وجل – ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخبط في الجاهلية الجهلاء .

الرابع : احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرا ، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلا كبيرا ، فإنه – تعالى – قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار ؛ فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه ، قال – تعالى – :

{ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين }

(سورة النحل / الآية :٣٦)

وقال – عز وجل – :

{ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون }

(سورة الزخرف / الآية :٤٥)

وقال – جل وعلا – في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه :

{ **ما لهم بذلك من علم** } أي : بصحة ما قالوه واحتجوا به .

{ **إن هم إلا يخرصون** } أي : يكذبون ويتقولون ،

وقال مجاهد في قوله – تعالى – :

{ **ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون** } يعني :ما يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك . (١٩٦)

---

(١٩٦) السابق ج ٤– ص ١٥٩.

نعم إن الله – عز وجل – قدر الخير والشر بدليل آية سورة القمر :

{ إِنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْنَاه بِقَدَرٍ } **(سورة القمر/ الآية :٤٩)**

ولكن الله – عز وجل – قدر الخير وأحبه وأحب أهله ، وبين ما فيه من حسن العاقبة فى الدارين ، ودعا عباده إليه ، وقدر الشر وأبغضه وأبغض أهله ، وبين ما فيه من سوء العاقبة فى الدارين ، ونهى عباده عنه وحذرهم منه ، وهؤلاء الذين احتجوا بالقدر ظنوا – جهلا – أن كل ما شاءه الله وخلقه فقد أحبه ، وليس الأمر كذلك فإن الله – سبحانه– قدر الشر كونا ولم يقدره شرعا، وعلى هذا فاحتجاج أهل العصيان والكفران بالقدر خروج على الشرائع وتعطيل لها ، وتسوية بين الأبرار والفجار ، ولو صح الاحتجاج بالقدر على النقائص والمعاصي والذنوب لكان للمرء أن يقتل ويسق ويزنى وينهب كيفما يشاء ، ثم إذا وقف للمساءلة ، أو لامه أحد وعاتبه أن يقول : إن ما فعلته كان بقدر الله ، وهذا ما لا يعقل ولا يقبل .

يقول ابن القيم – رحمه الله– بعد أن ذكر الآيات الأربعة التى حكت احتجاج المشركين بالقدر : فإن قيل : قد علم بالنصوص والمعقول صحة قولهم " لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا" و" لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا " و" لو شاء الرحمن ما عبدناهم " فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقد قال – تعالى – :

{ ولو شاء ربك ما فعلوه} **(سورة الأنعام / الآية :١١٢)**

وقال : **{ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها }** **(سورة السجدة / الآية :١٣)**

فكيف أكذبهم ، ونفى عنهم العلم ، وأثبت لهم الخرص فيما هم فيه صادقون ، وأهل السنة جميعا يقولون : لو شاء الله ما أشرك به مشرك ، ولا كفر به كافر ، ولا عصاه أحد من خلقه ؟ ، فكيف ينكر عليهم ما هم فيه صادقون ؟ قيل أنكر – سبحانه – عليهم ما هم فيه أكذب الكاذبين ، وأفجر الفاجرين ، ولم ينكر عليهم صدقا ولا حقا ، بل أنكر عليهم أبطل الباطل ؛ فإنهم لم يذكروا ما ذكروه إثباتا لقدره و ربوبيته ووحدانيته ، وافتقارا إليه ، وتوكلا عليه ، واستعانة به ، ولو قالوا كذلك لكانوا مصيبين ، وانما قالوه معارضين به لشرعه ، ودافعين به لأمره ، فعارضوا شرعه وأمره ، ودفعوه بقضائه وقدره ، ووافقهم على ذلك كل من عارض الأمر ودفعه بالقدر ، وأيضا فإنهم احتجوا بمشيئته العامة ، وقدره على محبته لما شاءه ورضاه به واذنه فيه ، فجمعوا بين أنواع من الضلال :

– معارضة الأمر بالقدر ودفعه به .

– الإخبار عن الله أنه يحب ذلك منهم ويرضاه حيث شاءه وقضاه

– وأن لهم الحجة على الرسل بالقضاء والقدر .

وقد ورثهم في هذا الضلال وتبعهم عليه طوائف من الناس ممن يدعي التحقيق والمعرفة ، أو يدعى فيه ذلك ، وقالوا العارف إذا شاهد الحكم سقط عنه اللوم . (١٩٧)

(١٩٧) شفاء العليل / ابن القيم – ص ١١٧ – تحقيق / محمد بدر الدين أبو فراس الغساني الحلبى – دار الفكر – بيروت – ط ١– ١٣٩٨هـ ة– ١٩٧٨م

وقال ابن تيمية – رحمه الله – :

وأما قول القائل : الزنا من المعاصي مكتوب فهو كلام صحيح ، لكن هذا لا ينفعه الاحتجاج به ؛ فإن الله – تعالى– كتب أفعال العباد خيرها وشرها ، وكتب ما يصيرون إليه من السعادة والشقاوة ، وجعل الأعمال سببا للثواب والعقاب ، وكتب ذلك كما كتب الأمراض وجعلها سببا للمرض والموت ، فمن أكل السم فإنه يمرض أو يموت ، والله – تعالى – قدر وكتب هذا وهذا ، كذلك من فعل ما نهي عنه من الكفر والفسوق والعصيان فإنه فعل ما كتب عليه ، وهو مستحق لما كتبه الله من الجزاء لمن عمل ذلك ، وحجة هؤلاء بالقدر على المعاصي من جنس حجة المشركين الذين قال الله – تعالى – عنهم :

{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } (سورة النحل / الآية :٣٥)

وقال:

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ{١٤٨} قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}

(سورة الأنعام/ الآيتان :١٤٨ – ١٤٩) **(١٩٨)**

(١٩٨) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية / ابن تيمية – ج٢– ص ٣٧٠– مؤسسة علوم القرآن – دمشق – ط٢– ١٤٠٤هـ – تحقيق د .محمد السيد الجليند

- ومما احتج به هؤلاء القوم المعطلين للشرع الرافضين للشريعة المحاربين لله ورسوله حديث حجاج آدم وموسى - عليهما السلام - فعن أبا هريرة - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(احتج آدم وموسى : فقال له موسى ، يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة .

قال له آدم : يا موسى اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟

فحج آدم موسى فحج آدم موسى) . ثلاثا (١٩٩)

فقد احتجوا بقول آدم - عليه السلام " أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة " ؟

فقد احتج - فى نظرهم - بالقدر على معصيته التى ارتكبها .

والجواب : أن آدم - عليه السلام - لم يحتج بالقدر على الذنب والمعصية ، وانما احتج بالقدر على المصيبة ، والقدر يحتج به على المصائب دون المعائب ، قال ابن القيم - رحمه الله - :

وموسى أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله فاجتباه ربه بعده وهداه واصطفاه وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته ، بل إنما لام موسى آدم على المعصية التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم ، فذكر الخطيئة تنبيها على سبب المصيبة والمحنة التي نالت الذرية ،

---

(١٩٩) متفق عليه : البخاري (كتاب) القدر (باب) تحاج آدم وموسى عند الله - ج٦ - ص ٢٤٣٩- برقم ٦٢٤٠. - ومسلم (كتاب) القدر (باب) حجاج آدم وموسى عليهما السلام - ج٤- ص ٢٠٤٢- برقم ٥٦٥٢.

ولهذا قال له : " أخرجتنا ونفسك من الجنة " وفي لفظ " خيبتنا " فاحتج آدم بالقدر على المصيبة ، وقال : إن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئتي كانت مكتوبة بقدره قبل خلقي ، والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب أي : أتلومني على مصيبة قدرت علي وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة هذا جواب شيخنا – رحمه الله – وقد يتوجه آخر وهو :

أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع ويضر في موضع : فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته ، كما فعل آدم ، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع ؛ لأنه لا يدفع بالقدر أمرا ولا نهيا ، ولا يبطل به شريعة ، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة ، يوضحه أن آدم قال لموسى : " أتلومني على أن عملت عملا كان مكتوبا علي قبل أن أخلق "

فإذا أذنب الرجل ذنبا ثم تاب منه توبة ، وزال أمره حتى كأن لم يكن فأنبه مؤنب عليه ولامه حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقول : هذا أمر كان قد قدر على قبل أن أخلق ؛ فإنه لم يدفع بالقدر حقا ، ولا ذكره حجة له على باطل ، ولا محذور في الاحتجاج به ، وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل : بأن يرتكب فعلا محرما ، أو يترك واجبا فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه واصراره ، فيبطل بالاحتجاج به حقا ، ويرتكب باطلا كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله

{ لَو شاء اللَّه ما أَشرَكْنَا ولاَ آباؤُنا }: {وقَالُوا لَو شَاء الرَّحمَن ما عبدْنَاهم }
فاحتجوا به مصوبين لما هم عليه ، وأنهم لم يندموا على فعله ، ولم يعزموا على تركه ، ولم يقروا بفساده ، فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه ، وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود ، فإذا لامه لائم بعد ذلك قال كان ما كان بقدر الله . (٢٠٠)

ونكتة المسألة : أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر ، وإذا كان اللوم واقعا فالاحتجاج بالقدر باطل

– وقد استدلوا كذلك بأن عليا بن أبى طالب – رضى الله عنه – احتج بالقدر على تركه قيام الليل كما فى الصحيحين من حديث على بن أبى طالب – رضي الله عنه –

أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – طرقه وفاطمة بنت النبي – عليه السلام – ليلة فقال : ألا تصليان ؟ فقلت : يا رسول الله ، أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إلي شيئا ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول :

{ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا} (٢٠١) .

(٢٠٠) شفاء العليل / ابن القيم – ج١ – ص ١٨

(٢٠١) متفق عليه: البخارى (كتاب) الاستسقاء (باب) تحريض النبى – صلى الله عليه وسلم – على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب – ج١ – ص ٣٧٩– برقم ١٠٧٥– ومسلم (كتاب)صلاة المسافرين وقصرها (باب) ما روى فيمن نام الليل أجمع– ج١ – ص ٥٣٧– برقم ٧٧٥.

فالجواب أن كل ما أراد علي أن يقوله : أن نفسه ونفس زوجه أثناء النوم بيد الله الذى يوقظهما إذا شاء لا دخل للعبد فى ذلك ، ثم إن القلم مرفوع عن النائم ، أي أنه ليس مفرطا ، واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح غير فاسد ، قال ابن القيم – رحمه الله – : ولقد أرشدنا النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى الاحتجاج بالقدر في الموضع الذي ينفع العبد الاحتجاج به فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وان أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان (٢٠٢)

فتضمن هذا الحديث الشريف أصولا عظيمة من أصول الإيمان أحدها : أن الله – سبحانه – وتعالى موصوف بالمحبة ، وأنه يحب حقيقة .

الثاني : أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها ، فهو القوي ويحب المؤمن القوي ، وهو وتر يحب الوتر ، وجميل يحب الجمال ، وعليم يحب العلماء ، ونظيف يحب النظافة ، ومؤمن يحب المؤمنين ، ومحسن يحب المحسنين ، وصابر يحب الصابرين ، وشاكر يحب الشاكرين .

ومنها : أن محبته للمؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من بعض .

(٢٠٢) مسلم (كتاب) القدر (باب) فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله – ج ٤ – ص ٢٠٥٢ – برقم ٢٦٦٤.. .

ومنها : أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده ، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع ، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودا ، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين أن يكون حريصا ، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به ، فإن حرص على مالا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص فإنه من الكمال بحسب ما فاته من ذلك ، فالخير كله في الحرص على ما ينفع ، ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين ؛ فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله ، ولا تتم إلا بمعونته ، فأمره بأن يعبده وأن يستعين به ، ثم قال : ولا تعجز ؛ فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه ، وينافي استعانته بالله ، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز ، فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله ، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ، ومصدرها منه ، ومردها إليه ، فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان :حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى " لو" ولا فائدة في " لو" هاهنا ، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن ، وذلك كله من عمل الشيطان ، فنهاه – صلى الله عليه وسلم – عن افتتاح عمله بهذا المفتاح ، وأمره بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظته ، وأنه لو قدر له لم يفت ولم يغلبه عليه أحد ، فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود المقدور وإذا انتفت امتنع وجوده ،

فلهذا قال : فإن فاتك أمر فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا ، ولكن قل :" قدر الله وما شاء فعل " فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين حالة حصول مطلوبة وحالة فواته ، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدا ، بل هو أشد شيء إليه ضرورة ، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام والعبودية ظاهرا وباطنا في حالتي حصول المطلوب وعدمه(٢٠٣)

إن هذا الخلل الكبير فى الفهم نتج عنه التسوية بين الحق والباطل والهدى والضلال والطاعة والمعصية ، بل قال أقوام من العبَّاد : ليس في الكون معصية البتَّة ، إذ العاصي مطيع للإرادة موافق للمراد ،وكذلك لم يفرقوا بين الحبيب والعدو ، ولا بين وأولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ودفع طائفة عريضة من الناس إلى استمراء المعاصى والرذائل ، بل إلى استحلالها ، وأحينا كثيرة دفع هذا الخلل إلى موالاة أعداء الله المسعمرين ومناصرتهم بحجة القدر حيث قالوا: إن دخول المستعمر بلادنا كان بقدر الله ، ومجاهدته والوقوف ضده ومدافعته رفض لقدر الله واعتراض عليه يقول الأستاذ أنور الجندي – رحمه الله – :

وحين كان الأمير " عبد القادر " يقود المجاهدين لحرب المستعمر قاومه كثير من الطرقيين ، وانبث كثير من شيوخ الطرق فى البلاد لتثبيط الهمم بالنسبة للمقاومة ، ومطالبة الناس بالانتظار والهدوء حتى تصل السفن الفرنسية ، وقد قامت حكومة الجزائر الفرنسية بتقريبهم ومكافأتهم ومنحهم النياشين والأوسمة تقديرا لجهودهم فى خدمتها والوقوف إلى جانبها .

---

(٢٠٣) شفاء العليل / ابن القيم – ج١– ص ١٩ .

وكان شيوخ الطرق الخائنون يقومون بكتابة عرائض بتوقيعاتهم وتوقيعات أتباعهم يملأونها بالثناء والشكر لفرنسا التى كانت تعتبرهم ممثلين للشعب ، ولا غرابة بعد ذلك كله أن يقول الحاكم الفرنسي فى الجزائر: أن الحكومة الفرنسية تعظم زاوية من زوايا الطرق أكثر من تعظيمها لثكنة جنودها وقوادها ، وأن الذى يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا .

وقد سجلت مجلة الفتح قصة صاحب السجادة الكبرى الذى ألقى خطبة الإخلاص (١٣٥٠هـ - ١٩٣١م) وهو محمد الكبير رئيس الطريقة التجانية بين يدي الكولونيل "سيكونى" الفرنسي وصف فيها فرنسا المستعمرة بأنها أم الوطن الكبرى ، وقال :

إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا ماديا وأدبيا وسياسيا ، وقال : إن أجدادي قد أحسنوا صنعا فى انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا ، ففى عام ١٨٣٨م كان أحد أجدادي قد أظهر شجاعة نادرة فى مقاومة أكبر عدو لفرنسا(عبد القادر الجزائرى) (٢٠٤)

أرأيت إلى هذا السفه ؟

هل تتخيل أن يصل الأمر بمسلم إلى هذا حد موالاة أعداء الله ومحاربة أوليائه !!؟

إنه الخلل الكبير الذى أصاب المفاهيم الإيمانية .

(٢٠٤) الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا / أنور الجندي ص ٥١- ٥٢- الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - ط١ - ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م

٢- الاستسلام للواقع السيئ وترك الأسباب بحجة القضاء والقدر .

ومن الخلل الخطير والقصور الشديد فى مفهوم الإيمان بالقضاء والقدر ترك الأسباب والتخلي عنها وتعطيلها بحجة القضاء والقدر ، وهو أمر من الخطورة بمكان كبير لا على الفرد وحده بل وعلى الأمة كلها ، حيث نتج عن ذلك تعطيل طاقات الأمة وبالتالي تخلفها عن ركب الحضارة ؛ فطمع فهيا أعداؤها وتكالبوا عليها واصطلحوا على إذلالها ، وهذا هو واقعها يشهد بهذا ، وانني أدعو هؤلاء القوم إلى تأمل آيات القرآن الكريم وتدبرها والوقوف معها

، والآيات القرآن الكريم تعلمنا أن لكل مسبب سبب فالعمل للآخرة سبب فى الفوز فيها والنجاة ، والإيمان سبب فى الهداية ، وكذلك طاعة النبي – صلى الله عليه وسلم – كما قال – سبحانه – :

{ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } **(سورة يونس / الآية :٩)**

وقال – سبحانه – :

{ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }

(سورة النور/ الآية :٥٤)

وكذلك جعل الدعاء سبا فى الشفاء من الأمراض وفى قضاء الحوائج ، وفى رد البلاء يقول

الشيخ مرعى يوسف :

وبالجملة فالقرآن من أوله إلى أخره صريح قي ترتيب الجزاء بالخير والشر ، والأحكام الشرعية مترتبة على الأسباب والأعمال ، ومن فقه قي هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلا منه وعجزا أو تفريطا واضاعة ؛ فيكون توكله عجزا وعجزه توكلا ، بل الفقيه العارف هو الذي يرد القدر بالقدر ، ويجلب القدر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر ، بل لا يمكن لإنسان أن يعيش إلا بذلك ؛ فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر ، وهكذا من وفقه الله – تعالى – وألهمه رشده فإنه يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة و الإيمان والأعمال الصالحة ، فإن وزان القدر المخوف في الآخرة وزان القدر المخوف في الدنيا في الدارين واحد ، وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضا ، ولا يبطل بعضها بعضا ، وهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها ، فثبت بما تقرر أن الله –تعالى – جعل للسعادة والشقاوة أسبابا ، وأنه – سبحانه – هو مسبب الأسباب ، وخالق كل شئ ، كما اقتضت ذلك حكمته ومشيئته ، وأن الأسباب لا بد منها في وجود المسببات

بمعنى :

أن الله – تعالى – لا يحدث المسببات ويشاؤها إلا بوجود الأسباب ، لكن الأسباب كما قال فيها الإمام الغزالي والحافظ ابن الجوزي وغيرهما :

الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، والتوكل معنى يلتئم به معنى التوحيد والعقل والشرع ، فالمؤمن المتوكل يباشر الأسباب .(٢٠٥)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

والناس قد اختلفوا في الدعاء المستعقب لقضاء الحاجات ، فزعم قوم من المبطلين متفلسفة ومتصوفة أنه لا فائدة فيه أصلا ؛ فإن المشيئة الإلهية ، والأسباب العلوية إما أن تكون قد اقتضت وجود المطلوب وحينئذ فلا حاجة إلى الدعاء ، أو لا تكون اقتضته وحينئذ فلا ينفع الدعاء .

وقال قوم ممن تكلم في العلم : بل الدعاء علامة ودلالة على حصول المطلوب ، وجعلوا ارتباطه بالمطلوب ارتباط الدليل بالمدلول لا ارتباط السبب بالمسبب بمنزلة الخبر الصادق والعلم السابق .

والصواب ما عليه الجمهور من أن الدعاء سبب لحصول الخير المطلوب أو غيره ، كسائر الأسباب المقدرة والمشروعة ، وسواء سمي سببا أو شرطا أو جزءا من السبب فالمقصود هنا واحد ، فإذا أراد الله بعبد خيرا ألهمه دعاءه والاستعانة به وجعل استعانته ودعاءه سببا للخير الذي قضاه له ،

كما قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – :

إني لا أحمل هم الإجابة ، وانما أحمل هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه.

---

(٢٠٥) رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر/ مرعى يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمي– ج١– ص ٢٧– تحقيق /أسعد محمد المغربي – دار حراء – مكة المكرمة – ط١– ١٤١٠هـ .

كما أن الله – تعالى – إذا أراد أن يشبع عبدا أو يرويه ألهمه أن يأكل أو يشرب ، وإذا أراد أن يتوب على عبد ألهمه أن يتوب ، فيتوب عليه ، وإذا أراد أن يرحمه ويدخله الجنة يسره لعمل أهل الجنة ، والمشيئة الإلهية اقتضت وجود هذه الخيرات بأسبابها المقدرة لها كما اقتضت وجود دخول الجنة بالعمل الصالح ، ووجود الولد بالوطء ، والعلم بالتعلم ، فمبدأ الأمور من الله ، وتمامها على الله لا أن العبد نفسه هو المؤثر في الرب أو في ملكوت الرب ، بل الرب – سبحانه – هو المؤثر في ملكوته ، وهو جاعل دعاء عبده سببا لما يريده – سبحانه – من القضاء كما قال رجل للنبي – صلى الله عليه وسلم – يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقي تسترقي بها ، وتقي نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : هي من قدر الله .(٢٠٦)

وعنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض . (٢٠٧)

فهذا في الدعاء الذي يكون سببا في حصول المطلوب

وأعلى من هذا ما جاء به الكتاب والسنة من رضا الله وفرحه وضحكه بسبب أعمال عباده الصالحة ، كما جاءت به النصوص ، وكذلك غضبه ومقته . (٢٠٨)

---

(٢٠٦) (ضعيف) الترمذي – ج٤– ص٣٩٩– برقم ٢٠٦٥– واحمد فى المسند برقم ١٥٥١٠ – وابن ماجة – ج٢– ص ١١٣٧ – برقم ٣٤٣٧. وقال الألباني ضعيف ، انظر المشكاة ج١– ص ١٣ .

(٢٠٧) (حسن) الحاكم فى المستدرك – ج١ – ص ٦٦٩– برقم ١٨١٣– والطبرانى فى الأوسط – ج٣ – ص ٦٦ – برقم ٢٤٨٩ – وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع : برقم ٧٧٣٩.

(208) اقتضاء الصراط المستقيم/ ابن تيمية – ج١ – ص ٣٥٨ – ٣٥٩.تحقيق / محمد حامد الفقي – مطبعة السنة المحمدية – القاهرة – ط٢– ١٣٦٩هـ .

وقد اتفقت كل الكتب السماوية على أن القدر السابق لا يمنع من العمل ، بل على العكس تماما فإنه يوجب الجد والاجتهاد والبذل والسعى ويؤكد هذا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما أخبر أصحابه بسبق المقادير وجريانها ، وجفوف القلم بها فقيل له :

أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟

قال : لا ، " اعملوا فكل ميسر " ، ثم قرأ :

{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى{٥} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{٦} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{٧} وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{٨} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{٩} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{١٠}(سورة الليل / الآيات من ٥– ١٠) (٢٠٩)

قال النووي– رحمه الله – :

وفي هذه الأحاديث النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر ، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها ، وكل ميسر لما خلق له لا يقدر على غيره ، ومن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعملهم . (٢١٠)

(٢٠٩) متفق عليه : البخارى (كتاب) القدر (باب) فسنيسره لليسرى – ج٤ – ص ١٨٩٠– برقم ٤٦٦٣.
ومسلم (كتاب) البر والصلة (باب) كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه – ج٤ – ص ٢٠٣٥– برقم ٢٦٤٧.
(٢١٠) المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج – ج١٦ – ١٩٦– ١٩٧.

الوجه الرابع :

زعمهم أن الإيمان بالقدر يقضي بترك الأعمال واهمال الأسباب :

لقد أخطأ هذا الفريق في دعواه أن الإيمان بالقدر لا يحتاج العبد معه إلى العمل ، وذهل هؤلاء عن حقيقة القدر ، فالله قدرَّ النتائج وأسبابها ، ولم يقدر المسببات من غير أسباب ، فمن زعم أن الله قدر النتائج والمسببات من غير مقدمتها وأسبابها فقد أعظم على الله الفرية .

فالله إذا قدرَّ أن يرزق فلاناً رزقاً جعل لذلك الرزق أسباباً ينال بها ، فمن ادعى أن لا حاجة به إلى السعي في طلب الرزق وأنَّ ما قدر له من رزق سوف يأتيه سعي أو لم يسع لم يفقه قدر الله في عباده .
ولذا قدر الله أن يرزق فلاناً ولداً ، فإنه يكون قدر له أن يتزوج ويعاشر زوجه ، فالأسباب هي من الأقدار .

والله يقدر أن فلاناً يدخل الجنة ، ويقدر مع ذلك أن هذا الإنسان يؤمن ويعمل الصالحات ، ويستقيم على أمر الله ، ويقدر أن فلاناً يكون من أهل النار ، ويقدر أسباب ذلك من تركه الإيمان والأعمال الصالحة ، ويقدر أن فلاناً يمرض فيتناول الدواء فيشفى ، فالله قدر المرض ، وقدر السبب الذي يزيل المرض ويحقق الشفاء .

والله يقدر أن فلاناً يدعوه ويستغيث به ، فيجيب دعاءه ويقبل رجاءه ، ويقدر أن فلاناً لا يدعوه ولا يرجوه ، فيكله إلى نفسه ، ويبقيه في تعسه .

فالله قدر المسببات وقدر أسبابها ، ومن زعم أن المسبب يقع من غير سبب فإنه لم يفقه دين الله ، ولم يعرف قدر الله ، وهو كمن يزعم أن الولد يأتي من غير سبب ، وأن الزرع يحصل من غير ماء ولا تراب ، وأن الشبع يحدث من غير طعام ، والري يكون من غير تناول شراب .

والنصوص الدالة على هذا الذي شرحناه وبيناه كثيرة وافرة .

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة ، فقد أمرت بالعمل والسعي في طلب الرزق ، واتخاذ العدة لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار

قال تعالى :

(فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)

(سورة الجمعة /الآية :١٠)

وقال :

(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)

(سورة الملك / الآية:١٥)

وقال :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)

(سورة الأنفال / الآية : ٦٠)

وأمر المسافرين للحج بالتزود :

(وتزودا فإن خير الزاد التقوى)

(سورة البقرة /الآية:١٩٧)

وأمر بالدعاء والاستعانة :

(وقال ربكم ادعوني أستجب لكم)

(سورة غافر / الآية:٦٠)

(قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا)

(سورة الأعراف /الآية:٢٨)

وأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه وجنته كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وحياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، بل حياة المرسلين جميعاً والسائرين على نهجهم كلها شاهدة على أخذهم بالأسباب ، والجد والاجتهاد في الأعمال .

إن الأخذ بالأسباب هو من قدر الله – تبارك وتعالى – ، وليس مناقضاً للقدر ولا منافياً له .

وقد فقه الرسول – صلى الله عليه سلم – بمعنى القدر ، وأنه لا يوجب ترك العمل ، بل يوجب الجد والاجتهاد فيه لبلوغه ما يطمح الإنسان في نيله وتحقيقه ، فقد سأل الصحابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن فائدة العمل إذا كانت الأعمال مقدرة مقضية جفَّ بها القلم ، وفرغ منها رب العالمين ، فقال : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له "

وقرأ عليه السلام :

(فأما من أعطى واتقى – وصدق بالحسنى – فسنيسره لليسرى – وأما من بخل واستغنى – وكذب بالحسنى – فسنيسره للعسرى)

(الليل / من:٥– ١٠) (٢١١).

إن الذي يفقه عن الله مراده في القدر يعلم أن القدر السابق لا يمنع العمل ، ولا يوجب الاتكال ، بل يدفع إلى الجد والاجتهاد والحرص على تحصيل ما ينفعه في الدنيا والآخرة .

إلا أنه يجب التنبه إلى أن العبد وإن أخَذَ بالأسباب فإنه لا يجوز أن يعتمد عليها ، ويتوكل عليها ، بل يجب أن يتوكل على خالقها ومنشئها .

وقد قال علماؤنا : " الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، وانما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع .

(٢١١) سبق تخريجه ، وهو في الصحيحين .

وبيان ذلك : أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه ، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا ، لأنه ليس مستقلاً ، ولا بدَّ له من شركاء وأضداد ، ومع هذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر ، وهذا مما يبين أن الله ربُّ كل شيء ومليكه ، وأن السماوات والأرض وما بينهما والأفلاك وما حوته لها خالق مدبر غيرها ، وذلك أن كل ما يصدر عن فلك أو كوكب أو ملك أو غير ذلك ، فإنك تجده ليس مستقلاً بإحداث شيء من الحوادث ، بل لا بدَّ له من مشارك ومعاون ، وهو مع ذلك له معارضات وممانعات . (٢١٢)

أن من أخذ بالأسباب التى شرعها الله ،وجد واجتهد رفعه الله ، ومن عطل الأسباب ولم يعمل بها وضعه الله وذلك يفهم من قوله – تعالى – :

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ{١٧٥} وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{١٧٦}

(سورة الأعراف / الآيتان : ١٧٥-١٧٦)

فالله – عز وجل لم يرفع هذا الرجل بعلمه الذى آتاه الله إياه لأنه لم يعمل بالأسباب التى يرفعه الله بها من طاعة الله وإيثار مرضاته ، وإيثار الحق على الباطل ، ومن ترك الهوى والانتصار على النفس الأمارة بالسوء التى تؤثر العاجل على الآجل ،

(٢١٢) مجموع الفتاوى / لبن تيمية – ج٨ – ص ١٧٠

قال ابن القيم – رحمه الله –

مضمون قوله : (**ولو شئنا لرفعناه بها**) أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات : من إيثار الله ومرضاته على هواه ، ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه . (٢١٣)

وأقول لمن يترك العمل والجد والسعي والعبادة بحجة أن الأمر مكتوب لن يتغير ، وأن أهل الجنة معروفون مكتوبون عند الله لن يزيدوا واحدا وكذلك أهل النار ، أقول لمن قال هذا : من أدراك أنك من أهل النار فلأجل ذلك تغب من بحر العصيان لا ترعوى عن فعل القبائح؟ لماذا تسئ الظن بالله – عز وجل – ؟

لماذا تفعل ما لا يقره عقلك ولا يتفق مع فطرتك ؟

لماذا لا تعمل لتكون من أهل الجنة ؟

ولني أدعوك إلى استخدام عقلك فى تفهم هذا الافتراض وهذا السؤال : هب أن أستاذا فى قال لتلاميذه : غدا عندكم اختبار فى مادة كذا ، وسوف يكون الاختبار صعبا ، وسينجح فيه تلامذة ويرسب آخرون ، ومن يرسب سيعاقب أشد العقاب . ، والسؤال : ماذا يجب على التلاميذ أن يفعلوا بعدما سمعوا هذا الكلام من أستاذهم ؟

هل يجد كل واحد ويذاكر مادة الاختبار ويسهر الليل طالبا التفوق ؟ أم يقولون لا فائدة من المذاكرة فمهما بذلنا لن ننجح ، ولن يكون إلا الرسوب الذى يتلوه العقاب ؟

(٢١٣) الأمثال فى القرآن الكريم / ابن القيم ص ٢٣– مكتبة الصحابة – طنطا – ط١– ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

أيهما العاقل المصيب فى رأيك : من يجتهد ويذاكر ويترك النتائج على الله ، أمن ييأس من النجاح ويترك البذل والمذاكرة ؟

وهذا ينطبق على ما نحن بصدده ، فافقه ما أقول لك يرحمك الله .

إن العاقل إذا علم أن كل شئ بقدر الله لا يخرج عن مشيئته ، وأن لكل شئ سببا فإنه يحرص على ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، مستعينا بالله ، تاركا الكسل والعجز مؤثرا الجد والنشاط فى العمل النافع له دينا ودنيا .

والخلاصة أن الإيمان بالقدر لا ينافى الأخذ بالأسباب ، بل الأسباب من قدر الله ، وأنها لا تعمل إلا بمشيئة الله ، وهذا ما فهمه الصحابة – رضوان الله عليهم – كما تعلمنا قصة عمر الفاروق مع أبى عبيدة فى طاعون الشام ، والقصة فى الصحيحين :

عن عبد الله بن عباس :

أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام .

قال ابن عباس :

فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه ، وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء .

فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم .

فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء .

فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه .

قال أبو عبيدة بن الجراح : أفرارا من قدر الله ؟

فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة .

نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان: إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟

قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته ، فقال :

إن عندي في هذا علما سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول :

(إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه) ، قال : فحمد الله عمر ثم انصرف . (٢١٤)

(٢١٤) البخاري (كتاب) الطب (باب) ما يذكر فى الطاعون – ج٥ – ص ٢١٦٣– برقم ٥٣٩٧ –مسلم (كتاب) السلام (باب) الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها – ج٤ – ص ١٧٤٠– برقم ٢٢١٩ .

وقبل نهاية هذا البحث نذكر بعض أقوال أهل العلم فى التحذير من الخوض فى مسائل القدر :

قال الآجرِّيُّ :

لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث في القدر ؛ لأن القدر سر من أسرار الله – عز وجل – ، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به ، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد ، فيضل عن طريق الحق . (٢١٥) .

وقال الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – :

من السنة اللازمة : الإيمان بالقدر خيره وشره ، والتصديق بالأحاديث فيه ، والإيمان بها ، لا يقال : لم ؟ ولا كيف ؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها .

ومن لم يعرف تفسير الحديث ، ولم يبلغه عقله ، فقد كفى ذلك ، وأحكم له ، فعليه الإيمان به ، والتسليم له ، مثل حديث الصادق المصدوق ، وما كان مثله في القدر . (٢١٦)

وقال علي بن المديني مثل قول الإمام أحمد في القدر . (٢١٧)

(٢١٥)الشريعة / للآجري : ص ١٤٩ .– تحقيق / محمد حامد الفقي – مطلعة السنة المحمدية – ط ١ – ١٣٦٩هـ.

(٢١٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ص١٥٧

(٢١٧) المرجع السابق :١٦٥ .

وتعليقا على ما سبق من أقوال أهل العلم قال الدكتور / عمر الأشقر – حفظه الله – : وهذا الذي قرره أهل العلم في القدر يضع لنا عدّة قواعد في غاية الأهمية :

الأولى : وجوب الإيمان بالقدر .

الثانية : الاعتماد في معرفة القدر وحدوده وأبعاده على الكتاب والسنة ، وترك الاعتماد في ذلك على نظر العقول ومحض القياس ؛ فالعقل الإنساني لا يستطيع بنفسه أن يضع المعالم والركائز التي تنقذه في هذا الباب من الانحراف والضلال ، والذين خاضوا في هذه المسألة بعقولهم ضلوا وتاهوا فمنهم من كذب بالقدر (القدرية)، ومنهم من ظن أن الإيمان بالقدر يلزم القول بالجبر (الجبرية)، ومنهم من ناقض الشرع بالقدر، وكل انحراف من هذه الانحرافات سبب مشكلات في واقع البشر وحياتهم ومجتمعاتهم ؛ فالانحراف العقائدي يسبب انحرافاً في السلوك وواقع الحياة .

الثالثة : ترك التعمق في البحث في القدر ، فبعض جوانبه لا يمكن للعقل الإنساني مهما كان نبوغه أن يستوعبها ، وبعضها الآخر لا يستوعبها إلا بصعوبة كبيرة .

قد يقال : أليس في هذا المنهج حجر عل العقل الإنساني ؟ والجواب أن هذا ليس بحجر على الفكر الإنساني ، بل هو صيانة لهذا العقل من أن تتبدد قواه في غير المجال الذي تحسن التفكير فيه ، إنه صيانة للعقل الإنساني من العمل في غير المجال الذي يحسنه ويبدع فيه .

إن الإسلام وضع بين يدي الإنسان معالم الإيمان بالقدر ، فالإيمان بالقدر يقوم على أن الله علم كلَّ ما هو كائن وكتبه وشاءه وخلقه ، واستيعاب العقل الإنساني لهذه الحقائق سهل ميسور ، ليس فيه صعوبة ، ولا غموض وتعقيد . أما البحث في سر القدر والغوص في أعماقه فإنه يبدد الطاقة العقلية ويهدرها ، إن البحث في كيفية العلم والكتابة والمشيئة والخلق ، بحث في كيفية صفات الله ، وكيف تعمل هذه الصفات ، وهذا أمر محجوب علمه عن البشر ، وهو غيب يجب الإيمان به ، ولا يجوز السؤال عن كنهه ، والباحث فيه كالباحث عن كيفية استواء الله على عرشه ، يقال له : هذه الصفات التي يقوم عليها القدر معناها معلوم ، وكيفيتها مجهولة ، والإيمان بها واجب ، والسؤال عن كيفيتها بدعة . إن السؤال عن الكيفية هو الذي أتعب الباحثين في القدر ، وجعل البحث فيه من أعقد الأمور وأصعبها ، وأظهر أن الإيمان به صعب المنال ، وهو سبب الحيرة التي وقع فيها كثير من الباحثين .

ولذا فقد نصَّ جمع من أهل العلم على المساحة المحظورة التي لا يجوز دخولها في باب القدر ، وقد سقنا قريباً مقالة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى التي يقول فيها : من السُّنة اللازمة الإيمان بالقدر خيره وشره ، والتصديق بالأحاديث فيه ، والإيمان بها ، لا يقال : لم ؟ ولا كيف ؟ (٢١٨) .

(٢١٨) شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي : ١ج – ص١٥٧ .

لقد خاض الباحثون في القدر : في كيفية خلق الله لأفعال العباد مع كون هذه الأفعال صادرة عن الإنسان حقيقة ، وبحثوا عن كيفية علم الله بما العباد عاملون ، وكيف يكلف عباده بالعمل مع أنه يعلم ما سيعملون ، ويعلم مصيرهم إلى الجنة أو النار .

وضرب الباحثون في هذا كتاب الله بعضه ببعض ، وتاهوا وحاروا ولم يصلوا إلى شاطئ السلامة ، وقد حذر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أمته من أن تسلك هذا المسار وتضرب في هذه البيداء ، ففي سنن الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال : " خرج علينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمرَّ وجهه ، حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان ، فقال : أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه (٢١٩) (٢٢٠)

محاورة عبد الجبار الهمداني وأبي إسحاق الإسفراييني ودخل عبد الجبار الهمداني أحد شيوخ المعتزلة – على الصاحب ابن عباد ، وعنده أبو إسحاق الإسفراييني أحد أئمة السنة ، فلما رأى الأستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء .

فقال الأستاذ فوراً : سبحان من لا يقع في ملكه إلا من يشاء .

(٢١٩)(حسن) الترمذى –ج٤–ص٤٤٣– برقم ٢١٣٣– ابن ماجه – ج١– ص ٣٣– برقم ٨٥– أحمد – ج٢– ص١٩٥– برقم ٦٨٤٥

(٢٢٠) القضاء والقدر / د. عمر سليمان الأشقر – ص ٢٤– ٢٥.

فقال القاضي : أيشاء ربنا أن يعصى ؟

فقال الأستاذ : أيعصى ربنا قهراً ؟

فقال القاضي : أرأيت إن منعني الهدى ، وقضى عليَّ بالردى ، أحسن إلي أم أساء ؟

فقال الأستاذ : إن منعك ما هو لك فقد أساء ، وان منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء . فبهت القاضي . (٢٢١)

وفي تاريخ الطبري أن غيلان قال لميمون بن مهران بحضرة هشام بن عبد الملك الذي أتى به ليناقشه :

أشاء الله أن يعصى ؟

فقال له ميمون : أفعصي كارهاً ؟ (٢٢٢)

وبعد هذا التطواف السريع لابد من العمل الجاد النافع للفرد والمجتمع ، والأمة التى تحتاج منا لكل حركة وسكنة ؛ لتنهض من كبوتها وتفيق من غفوتها ، ودع عنك قالة أهل السوء ؛ فإنهم لا يحسنون غير الكلام والتثبيط .

(٢٢١) فتح الباري / ابن حجر - ج ١٣- ص ٤٥١ .

(٢٢٢) تاريخ الأمم والملوك / محمد بن جرير الطبرى - ج٤- ص ٢١٩- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١- ١٤٠٧هـ .

المبحث الثامن

الانحراف فى مفهوم محبة النبي - صلى الله عليه وسلم -

ومن صوره :

١-الانحراف فى تصور الحقيقة المحمدية .

٢-المغالاة فى المدح والإطراء .

واليك البيان والتفصيل :

الانحراف فى تصور الحقيقة المحمدية

أولا : لكي تصح تصوراتنا وأفكارنا ، ولكي نحمى عقيدتنا من الانحراف والزلل لابد من الصدور عن الوحى السماوي فى كل صغيرة وكبيرة ، ولقد أمضي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حياته كلها يجاهد ليقرر أصلين اثنين :

الأصل الأول : توحيد الله – عز وجل – وأنه لا رب غيره ولا إله سواه ، ولا كفء له ولا نظير ولا شبيه .

الأصل الثانى : توحيد طريق التلقي ومصدره ، فليس للمسلم أن يخرج عن القرآن والسنة ، وقد حرص رسول الله – صلى الله عليه وسلم على ذلك أشد الحرص ، ولم يقبل من أحد الخروج عن ذلك ولو كان أقرب الناس إليه ، ومن الأدلة على ذلك قصة عمر – رضى الله عنه – عندما رآه النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأ فى ورقة من التوراة، فعن جابر بن عبد الله : أن عمر بن الخطاب أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه النبي – صلى الله عليه وسلم – فغضب ، فقال : " أمتهوكون فيها يا بن الخطاب ، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى – صلى الله عليه وسلم – كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني " . (٢٢٣)

---

(٢٢٣) أحمد فى المسند – ج٣– ص ٣٨٧– برقم ١٥١٩٥– و البيهقى فى شعب الإيمان ج١–ص١٩٦– برقم ١٧٦– وابن أبى شيبة فى مصنفه – ج٥–ص ٣١٢– برقم – ٢٦٤٢١والدار مي فى السنن – ج١ – ص ١١٥– ١١٦– وقال الشيخ الألبانى – رحمه الله – فى تخريج المشكاة ج١– ص ٦٣– وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف ، ولكن الحديث حسن عندي لأن له طرقا كثيرة عند اللالكائى والهروي وغيرهما وقد خرجت بعضها فى الإرواء – ١٥٨٩.

وفى هذا الحديث من الفقه : أنه – صلى الله عليه وسلم – تعجب أن يكون الاهتداء بغير الكتاب والسنة ، وأن الإسلام عقيدة نقية لا لبس فيها ولا غموض ، بل بيضاء نقية ، وأنه لا مصدر للمسلم ولا طريق له منه ينطلق وعنه يصدر إلا الوحي قرآنا وسنة .

وبتأمل آيات القرآن الكريم وأحاديث الهادي البشير تتجلى لنا حقيقة النبى – صلى الله عليه وسلم – بيضاء نقية لا لبس فيها ولا غبش ولا غموض ، فهو كما يقص علينا كتاب الله بشر لا يعلو على مقام البشرية ، لحس بما يحس به البشر يتألم كما يتألمون ، ويشعر كما يشعرون ، ويمرض كما يمرضون ، ويأكل كما يأكلون ، ويجوع كما يجوعون – ويمشى فى الأسواق هو وكل المرسلين من قبله ، كما قال ربنا – جل وعلا

{وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا}

(الفرقان/ ٢٠)

يقوم الليل يرجو رحمة الله ويخاف عذابه ، يؤذى ويحارب ويخرجه أعداؤه من بلده فيهاجر لينشر الإسلام ويبلغ كلمة ربه ، ويعاديه المنافقون ويرمون زوجته بالقبائح التى برأها الله منها ، ويعيش على الكفاف ويربط الحجر على بطنه من الجوع ، ويمر الهلال لا يوقد فى بيته نار وانما يعيش على الأسودين التمر والماء ، يعيش بين أصحابه كواحد منهم ، ويتواضع لهم ،

ويرفض منهم أن يعظموه أو يقوموا له إذا أقبل أو يسجدوا له كما تفعل النصارى مع أساقفتهم وبطارقتهم .

لا يعلم الغيب إ لا بمقدار ما علمه الله أ ولنتأمل هذه الآيات التى تؤكد بشريته كما أسلفنا :

يقول – عز وجل – :

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً }

(سورة الكهف/الآية:١٠)

فهو بشر مثلنا لا يتعدى مقام البشرية إلى مقام الألوهية ولا إلا مقام بين الألوهية والبشرية ، لكن الله فضله واصطفاه وأوحي إليه ، وربك أعلم حيث يجعل رسالته

{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } **(سورة الفرقان/ الآية :٧)**

ولكي يكون قدوة كان بشرا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ولن تظهر العظمة وهو ملك

، بل وهو بشر ينتصر على نفسه ويسمو بها فوق المطامع ويستعلى على الفتن

وقال ربنا :

{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ } **(سورة الزمر/الآية :٣٠)**

فليس هناك خلود إلا لله .

{وما محمدٌ إلاَّ رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسلُ أفإن مَّات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشَّاكرين } (سورة آل عمران/ الآية : ١٤٤)

أنه لا يعدو مقام الألوهية :

{ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوَّة ثُمَّ يقول للنَّاس كونوا عباداً لِّي من دون الله ولكن كونوا ربَّانيين بما كنتم تعلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون{٧٩} ولا يأمركم أن تتَّخذوا الملائكة والنبيِّين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مُّسلمون{٨٠}

(آل عمران/٧٩-٨٠)

وقال ربنا - عز وجل - :

{ وما منع النَّاس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رَّسولاً{٩٤} قُل لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنِّين لنزَّلنا عليهم من السَّماء ملكاً رَّسولاً{٩٥}

(سورة الإسراء /٩٤- ٩٥)

وقال - سبحانه - :

{ قُل إن كان للرَّحمن ولدٌ فأنا أوَّل العابدين{٨١} سبحان ربِّ السَّماوات والأرض ربِّ العرش عمَّا يصفون{٨٢} (سورة الزخرف / الآيتان :٨١-٨٢)

وقال - عز وجل - :

{ قُل لا أَقُولُ لَكُمْ عندي خَزَآئِنُ اللّه ولا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ }

(سورة الأنعام/ الآية : ٥٠)

وهو لا يعلم الغيب ، ولا يملك لأحد ضرا ولا نفعا ؛ لأن الله - سبحانه - هو الضار النافع ، كما قال ربنا - جل وعلا - :

{قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَراً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

(سورة الأعراف/ الآية :١٨٨)

وهداية التوفيق ، وتحريك القلوب نحو خالقها ، والأخذ بيد الناس إلى الإيمان بالله أمر بيد الله - وحده - كما قال ربنا :

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }

(سورة القصص /الآية :٥٦)

وكما قال :

{مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }(الكهف/١٧)

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ } **(سورة الغاشية/ الآية : ٢١)**

وكما قال – عز وجل – :

{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }

(سورة ق/ الآية :٤٥)

وليس فى ذلك غض من مكانته – صلى الله عليه وسلم – لأن الطبيعة البشرية ليست ناقصة بذاتها ، وانما يأتيها النقص والسفول عندما ترتد عن منهج الله ، كما قال ربنا :

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{٤} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{٥} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{٦}

(سورة التين / الآيات من :٤-٦)

– ومع هذا فهو – صلى الله عليه وسلم صاحب المقام المحمود والحوض المورود ، كما قال ربنا – سبحانه وتعالى – :

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ{١} فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{٢} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ{٣}

(سورة الكوثر/ الآيات من:١- ٣)

– وصاحب الشفاعة العظمى ، وصاحب اللواء الذي ينضوي الجميع تحته ،كما روى الترمذى من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر .

قال : فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون : أنت أبونا آدم فاشفع لنا إلى ربك ، فيقول : إني أذنبت ذنبا أهبطت منه إلى الأرض ، ولكن ائتوا نوحا ، فيأتون نوحا فيقول :إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات ، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله ، ولكن ائتوا موسى ، فيأتون موسى فيقول : إني قد قتلت نفسا ، ولكن ائتوا عيسى فيقول : إني عبدت من دون الله ، ولكن ائتوا محمد ، قال : فيأتوني فأنطلق معهم ، قال ابن جدعان : قال أنس : فكأني أنظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : محمد ، فيفتحون لي ويرحبون فيقولون : مرحبا ، فأخر ساجدا فيلهمني الله من الثناء والحمد فيقال لي : ارفع رأسك ، سل تعط ، واشفع تشفع ، وقل يسمع لقولك ، وهو المقام المحمود الذي قال الله :

{ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً }

(سورة الإسراء/ الآية :٧٩) (٢٢٤)

(٢٢٤) (صحيح) الترمذى - ج٥- ص٣٠٨- برقم ٣١٤٨- والدا رمى - ج١- ص ٤٠ - برقم ٥٠ - وأبو يعلى فى مسنده - ج٧ - ص ٧٢- برقم ٣٩٩٧- والحميدى فى مسنده - ج ٢- ص ٥٠٦- برقم ١٢٠٤ - وقد صححه الألبانى كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم ٢٣٣٩ - ج١ - ص ٢٣٤ وكذلك فى صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٥٤٣- ج٣ - ص ٢٣٩- وفى السلسلة الصحيحة برقم ١٥٧٠ - ج٤- ص ٩٧.

نعم إنه بشر ولكنه دعوة إبراهيم – عيه السلام – وبشارة – عيسى – عليه السلام ، وبه بشرت الكتب السابقة كما قال ربنا – جل وعلا – :

{ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ }

(سورة البقرة/ الآية :١٢٩)

وقال ربنا – عز وجل – :{ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ }

(سورة الصف/ الآية :٦)

وقال – عز وجل – :

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

(سورة الأعراف/ الآية :١٥٧)

ورغم هذه المكانة فهو بشر ، والله - تعالى- يصفه فى أرفع مقاماته بصفة العبودية كما قال - تعالى -:

{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً }

سورة الجن / الآية : ١٩

وقال ربنا :

{ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى } **(سورة النجم/ الآية :١٠)**

وقال ربنا :

{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }

(الإسراء/ الآية :١)

وانك إن تأملت أسلوب القرآن الكريم وهو يخاطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تجد توازنا دقيقا بين مراعاة حق النبى - عليه الصلاة والسلام - وبين صيانة مقام الألوهية من الالتباس ، فتجد الأسلوب رقيقا لينا عند الحديث عن شخصه - صلى الله عليه وسلم- فإذا كان الحديث عن المبادئ والأحكام الشرعية التى لا يصح أن تلتبس على الناس كان الأسلوب صارما شديدا ، وتأمل ذلك فى الآيات التالية : قال - تعالى - :

{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ{١} مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ{٢} وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ{٣} وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ{٤}

(سورة القلم / الآيات من :١-٤)

وقال ربنا :

{ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }

(سورة التوبة/ الآية :١٢٨)

وقال – تعالى – :

{ وَالضُّحَى{١} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{٢} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{٣} وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى{٤} وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى{٥}

(الضحى / ١-٥)

وقال – تعالى – :

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

(سورة المائدة/ الآية :١٩)

وقال – تعالى – :

{ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً }

سورة الجن / الآية : ١٩

وقال – تعالى – :

{ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى } (سورة النجم/ الآية :١٠)

وقال – تعالى – :

{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } (الإسراء/ الآية :١)

وقال – تعالى – :

{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً }

(الكهف/ الآية :٦)

وقال – تعالى – :

{ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

(الأنفال/ الآية :٤١)

وقال – تعالى – :

{ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }

(سورة فاطر/ الآية :٨)

وقال – تعالى – :

{ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } (سورة النحل/ الآية :١٢٧)

وقال – عز وجل –

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ }

(سورة المائدة /:٤١)

وقال – تعالى – :

{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{١} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٢} وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{٣}

(سورة الفتح / الآيات من:١-٣)

وقال – تعالى – :

{ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ }

(سورة الطور/الآية :٤٨)

وقال – تعالى – :

{ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{٩٨} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{٩٩}

(الحجر / الآيات من :٩٤-٩٩)

وعند تقرير المبادئ الشرعية التى لا تقبل اللبس ن والتى لا تقبل المجاملة ولا المحاباة تجد الصرامة والحسم والحزم والشدة أحينا كما فى هذه الآيات :

قال – تعالى – :

{ ولَقَدْ أُوحِيَ إِلَيكَ وإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

(سور الزمر/الآية:٦٥)

وقال – تعالى – :

{ وإِذَا جَاءتْهُم آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}

(سورة الأنعام / الآية :١٢٤)

وقال – تعالى – :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ولَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ والْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{١} واتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{٢} وتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً{٣}

(سورة الأحزاب/ الآيات من ١ –٣)

وقال – تعالى – :

{ ولَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{٤٤} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{٤٥} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{٤٦} فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ{٤٧}

(سورة الحاقة / ٤٤ – ٤٧)

وقال – تعالى – :

{ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً{٧٣} ولولا أن ثبتناك لقد كدتَّ تركن إليهم شيئاً قليلاً{٧٤} إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثُمَّ لا تجد لك علينا نصيراً{٧٥}

(سورة الإسراء/ الآيات من: ٧٣ – ٧٥)

وقال :

{ ولا تطرد الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين } (سورة الأنعام/الآية:٥٢)

وقال – تعالى – :

{ فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنَّه بما تعملون بصير{١١٢} ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثُمَّ لا تنصرون{١١٣} (سورة هود /الآيتان :١١٢– ١١٣)

وقال – تعالى – :

{ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكلِّ آية مَّا تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتَّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنَّك إذاً لمن الظالمين } (سورة البقرة/ الآية:١٤٥)

وقال :

{ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ{٣٣} وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ{٣٤} وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ{٣٥}

(سورة الأنعام /الآيات من : ٣٣-٣٥)

هذه هى حقيقة النبى محمد – صلى الله عليه وسلم – كما جاء بها الوحي السماوي ، حقيقة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، فهو عبد من عباد الله ، بشر مثلنا ، ولكن الله اصطفاه وكرمه بالوحي والرسالة ، ومن عليه بالمكانة العالية والجاه الرفيع ، ولكنه مع هذا لا يعلم الغيب :

{ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ }

(سورة النمل/ الآية :٦٥)

قال ربنا – سبحانه –

{ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ }

(سورة الأنعام/ الآية :٥٠)

وهو لا يعلم الغيب ، ولا يملك لأحد ضرا ولا نفعا ؛ لأن الله – سبحانه – هو الضار النافع ، كما قال ربنا – جل وعلا –:

{ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

(سورة الأعراف/ الآية :١٨٨)

هذا هو رسول الله كما علمنا الوحي قرآنا وسنة

فماذا حدث من خلل فى تصور حقيقته ؟

الذى حدث أن أقواما تركوا الوحي وراءهم ظهريا ، وراحوا يتخيلون رسول الله كما يريدون ، أو كما يراد لهم ومن الخلل الذى وقع :

١- الانحراف فى تصور الحقيقة المحمدية .

ونحن لن نتقول على هؤلاء المنحرفين فى تصور الحقيقة المحمدية ولن نظلمهم ، وانما نورد بعض أقوالهم ، ونرى كيف يتصورون رسول الله .

إن الذى تصرح به جل كتب الصوفية شئ مباين تماما لما جاء به الوحى ، فرسول الله عند القائلين بوحدة الوجود هو المخلوق الأول ومنه وعنه صدرت كل الموجودات ، بل هو عندهم الإله المستوى على العرش

– يقول ابن عربي : الحقيقة المحمدية أ و الروح المحمدي هو المظهر الكامل للذات الإلهية والأسماء والصفات . (٢٢٥)

---

(٢٢٥) الفتوحات المكية / محيي الدين بن عربي – ج٢– ص ٩٧– ط١ – المكتب العربية – القاهرة .

- ويقول أيضا :

الحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل ، فالإنسان صورة الحق من التنزيه والتقديس عن الشوب فى حقيقته ، فهو المألوه المطلق ، والحق - سبحانه - هو الإله المطلق ، وأعنى بهذا كله الإنسان الكامل . (٢٢٦)

ويقول :

اعلم أن الإنسان الكامل (الحقيقة المحمدية) هو الذى يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي . (٢٢٧)

- ويتكلم ابن تيمية - رحمه اله - عن مثل هذه الطائفة الضالة فيقول

طائفة من غلاة المنتسبين إلى الإسلام وغيرهم الذين يقولون : إن ذات النبي كانت موجودة قبل خلق آدم ، ويقولون : إنه خلق من نور رب العالمين ، ووجد قبل خلق آدم ، وأن الأشياء خلقت منه ، حتى قد يقولون في محمد من جنس قول النصارى في المسيح ، حتى قد يجعلون مدد العالم منه ، ويروون في ذلك أحاديث وكلها كذب ، مع أن هؤلاء لا يقولون إن المتقدم هو اللاهوت بل يدعون تقدم حقيقته وذاته ويشيرون إلى شيء لا حقيقة له كما تشير النصارى إلى تقدم لاهوت اتحد به لا حقيقة له

ومن هؤلاء الغلاة من يروي عن النبي أنه قال :

من قال إني كلي بشر فقد كفر ، ومن قال لست ببشر فقد كفر .

ويحتجون بقوله تعالى

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) (سورة الأحزاب / الآية : ٤٠)

---

(٢٢٦) الفتوحات المكية / محيي الدين بن عربي - ج٢- ص ٦٠٣ .

(٢٢٧) السابق - ج٢- ص ٩٧.

فيجعلون فيه شيئا من اللاهوت مضاهاة للنصارى

وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم بالحديث . (٢٢٨)

- ويقولون أيضا : لا يدرى لحقيقته غاية ، ولا يعلم لها نهاية ، فهو من الغيب الذى نؤمن به . (٢٢٩)

- ويقولون :

شأن محمد فى جميع تصرفاته شأن الله ، فما الوجود إلا محمد . (٢٣٠)

ويقولون :

اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وارض وجنات وحجب وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها وجدت بعضا من نور النبي ، وان مجموع نوره لو وضع فوق العرش لتهافت ، ولو جمعت المخلوقات نلها ووضع ذلك النور العظيم لتهافتت وتساقطت . (٢٣١)

وتأمل فى أذكارهم التى يرددونها صباح مساء والتى يوجبون على مريديهم قراءتها آلاف المرات .

(٢٢٨) الجواب الصحيح / ابن تيمية - ج٣ - ص ٣٨٤.

(٢٢٩) النفحات الأقدسية / للبيطار - ص١١.

(٢٣٠) السابق - ص ٩.

(٢٣١)الإبريز / عبد العزيز الدباغ - ص ٥٢ - المطبعة الأزهرية المصرية - ط١- ١٣٠٦.

ومن ذلك قولهم فى صلاة ابن مشيش :

اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار ، وفيه ارتفعت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ، ولا شئ إلا وهو به منوط ؛ إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط ، صلاة تليق بك إليه كما هو أهله ، اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك ، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك ، اللهم ألحقني بنسبه وحققنى بحسبه ، وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل ، وأكرع بها من موارد الفضل ، واحملني على سبيله إلى حضرتك حملا محفوفا بنصرتك ، واقذف بي على الباطل فادمغه ، وزج بي فى بحار الأحمدية ، وانشلني من أوحال التوحيد . (٢٣٢)

ومن ذلك قولهم فى مناجاة الرسول :

يا أول خلق الله ، يا نور عرش الله . (٢٣٣)

يقول الشيخ / عبد الرحمن عبد الخالق :

يعتقد الصوفية فى الرسول أيضا عقائد شتى : فمنهم من يزعم أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يصل إلى مرتبتهم وحالهم ، وأنه كان جاهلا بعلوم رجال التصوف ، كما قال البسطامي :خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله .

(٢٣٢) الفكر الصوفي / عبد الرحمن عبد الخالق – ص ١٩٣– ١٩٤ – دار الحرمين للطباعة – ط٤ – ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م .

(٢٣٣) السابق / ص ١٩٤.

ومنهم من يعتقد أن الرسول محمدا هو قبة الكون ، وهو الله المستوى على العرش ، وأن السماوات والأرض والكرسى وكل الكائنات خلقت من نوره ، وأنه أول موجود ، وهو المستوى على عرش الله ، وهذه عقيدة ابن عربي ومن جاء بعده . (٢٣٤)

ولعل قائلا أن يقول مضى زمن ابن عربي ولم يعد من أصحاب وحدة الوجود أحد ، فلماذا ننبش عن كلام لم يعد هذا زمانه ؟ ولماذا نبعث هذه الفتنة من تحت الرماد؟

والجواب أن لهذا الفكر أثره ووجوده القوي عند عامة الناس إلا من رحم الله ، ولا زلنا نسمع من يصرخ بأعلى صوته فى مكبرات الصوت بعد الآذان من يقول : الصلاة والسلام عليك يا أول خلق الله ونور عرش الله .

هذه هى الحقيقة المحمدية عند طوائف كثيرة من الناس : يرونه يعلم الغيب ، ويرجى فى الشدائد ، ومن نوره انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار ، ولأجله خلق الخلق وخلق العرش ، وهو على العرش استوى !! إلى آخر هذه الخرافات والأساطير التى ينسجها فئام عريض من الناس لا يستندون فى ذلك إلى علم أو برهان ، اللهم إلا الذوق والمواجيد والتأثر بعقائد غير المسلمين من فلاسفة وملحدين .

ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – براء ممن يقول هذا ويعتقد هذا ؛ لأنه بشر يرجو رحمة الله ويخاف عذابه ، وهو القائل :

(لن يدخل أحدا عملُه الجنةَ)

قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

---

(٢٣٤) فضائح الصوفية / عبد الرحمن عبد الخالق – ص ٤٨– مكتبة العلم – ط٣– ١٩٩٧م

قال : (لا ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ، ولا يتمنين أحدكم الموت ؛ إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، ولما مسيئا فلعله أن يستعتب . (٢٣٥)

إنه – صلى الله عليه وسلم – بشر لا يعلم الغيب إلا أن يعلمه الله شيئا منه حجة له على الكافرين ، وآية يمده الله بها كما قال ربنا – عز وجل – :

{ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ{٦٧} أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ{٦٨} مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ{٦٩} إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{٧٠}

(سورة ص /الآيات من:٦٧– ٧٠)

وقال – عز وجل – :

{ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } **(سورة هود/ الآية :٤٩)**

وقال – عز وجل – :

{ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ{٤٤} وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ }

(سورة القصص / الآيتان :٤٤– ٤٥)

---

(٢٣٥) متفق عليه : البخاري (كتاب) المرضى (باب) نهى تمنى المريض الموت – ج٥– ص ٢١٤٧– برقم ٥٣٤٩– ومسلم (كتاب) صفة القيامة والجنة والنار (باب) لن يدخل أحد الجنة بعمله – ج٤– ص٢١٦٩– برقم ٢٨١٦.

وقال – عز وجل – :

{ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً } (سورة النساء / الآية :١١٣)

٢- المغالاة فى الإطراء والمدح

وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يربى أصحابه حريصا كل الحرص على جناب التوحيد ، ولذلك لم يكن يدع خطأ يرتكب إلا قومه وصححه ، ويدل على هذا :

عن ابن عباس أنه سمع عمر – رضي الله عنه – يقول على المنبر :

سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول :

(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله.) (٢٣٦)

فنهي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المسلمين فى هذا الحديث عن الغلو والمبالغة فى مدحه ؛ وذلك لأن ذلك قد يكون ذريعة للشرك وطريق إليه كما حدث عند النصارى الذين غالوا فى مدح المسيح حتى جعلوه إلها وعبدوه من دون الله فسدا للذريعة واغلاقا لباب الشرك كان هذا النهي عن المغالاة والمدح .

(٢٣٦) البخارى (كتاب) الأنبياء (باب) "واذكر فى الكتاب مريم " – ج٢ – ص١٢٧١– برقم ٣٢٦١.

وعن بن عباس : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه في بعض الأمر فقال ما شاء الله وشئت فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – :

" أجعلتني لله عدلا ، قل ما شاء الله وحده " (٢٣٧)

قال ابن تيمية :

وقد كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يحقق هذا التوحيد لأمته ، ويحسم عنهم مواد الشرك إذ هذا تحقيق قولنا : " لا إله إلا الله " فإن الإله هو الذى تألهه القلوب لكمال المحبة والتعظيم والإجلال والإكرام والرجاء والخوف ، حتى قال لهم : " لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد " (٢٣٨)

– وقال له رجل : ما شاء الله وشئت .

فقال : أجعلتني لله ندا ، بل ما شاء الله وحده . (٢٣٩) (٢٤٠)

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : " لما نزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – طفق يطرح خميصة له على وجهه

---

(٢٣٧) (حسن) النسائي فى السنن الكبرى ١٠٣٤٠– وأحمد فى المسند ١٨٣٩– والبخاري فى الأدب المفرد ٧٧٩– والطبرانى فى المعجم الكبير ١٢٨٤٠– وغيرهم انظر السلسلة الصحيحة برقم ١٠٩٣.

(٢٣٨) (صحيح) أبو داود ج٢– ص٧١٣– برقم ٤٩٨ – وابن ماجة ج١– ص ٦٨٥ – برقم ٢١١٨– أحمد فى المسند ج٥– ص ٣٨٤– برقم ٢٣٣١٣.والدا رمى فى سننه – ج٢– ص ٣٨٢– البيهقى فى الشعب – ج٣– ص ٢١٦– برقم ٥٦٠١. وصححه الألبانى كما فى السلسلة – ج١– ص ٢٦٣– وكذلك فى صحيح الجامع برقم ٧٤٠٦ وفى المشكاة ج٣– ص ٣٥– برقم ٤٧٧٨وفى الجامع الصغير ج١– ص ١٣٣٧ – برقم ١٣٣٦٣.

(٢٣٩) مخرج فى نفس الصفحة .

(٢٤٠) الفتاوى الكبرى / ابن تيمية – ج١– ص٦٦.

، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : " لعنة الله على اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " (٢٤١)

وهذا تحذيرا للأمة المسلمة أن تحذو حذو اليهود والنصارى؛ فينتشر الشرك فى الأمة ، ويعم البلاء . أن من المعلوم الذي اتفق عليه أهل العلم أن انتشار الشرك فى الأرض كان سببه الغلو فى الصالحين كما قال – تعالى – :

{ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا }

(سورة نوح/ الآية :٢٣)

قال ابن تيمية – رحمه الله – :

فأصل الشرك من تعظيم القبور وعبادة الكواكب

والشرك في بني آدم أكثره عن أصلين :

أولهما : تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها ، وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون الشرك ، وهو شرك قوم نوح .

قال ابن عباس :

كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أن نوحا أول رسول بعث إلى أهل الأرض ؛ ولهذا لم يذكر الله في القرآن قبله رسولا ، فإن الشرك إنما ظهر في زمانه .

(٢٤١) متفق عليه : البخارى (كتاب) الصلاة (باب) الصلاة فى البيعة – ج١ –ص ١٦٨– برقم ٤٢٥– ومسلم (كتاب)المساجد (باب) النهى عن بناء المساجد على القبور – ج١– ص ٣٧٧– برقم ٥٣١.

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، وذكره أهل التفسير والسير من غير واحد من السلف في قوله تعالى " وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا " أن هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، وأن هذه الأصنام صارت إلى العرب ، وذكر ابن عباس قبائل العرب التي كانت فيهم مثل هذه الأصنام (٢٤٢)

قوله : "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم "

الإطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب عليه .قاله أبو السعادات .

وقال غيره : أي لا تمدحوني بالباطل ، ولا تجاوزوا الحد في مدحي.

قوله : " إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله "

أي : لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى – عليه السلام – فادعوا فيه الإلهية ، وانما أنا عبد الله ورسوله فصفوني بذلك كما وصفني ربي ، فقولوا : عبد الله ورسوله ، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه ، وعظموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه ، وناقضوه أعظم مناقضة ، وضاهوا النصارى في غلوهم وشركهم ، ووقعوا في المحذور ، وجرى منهم من الغلو والشرك شعرا ونثرا ما يطول عده وصنفوا فيه مصنفا ت .

وقد ذكر شيخ الإسلام – رحمه الله – عن بعض أهل زمانه أنه جوز الاستغاثة بالرسول – صلى الله عليه وسلم – في كل ما يستغاث فيه بالله ، وصنف في ذلك مصنفا رده شيخ الإسلام ، ورده موجود بحمد الله ،

---

(٢٤٢) مجموع الفتاوى / ابن تيمية – ج١-ص ٢٨٥.

ويقول : إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله ، وذكر لهم أشياء من هذا النمط نعوذ بالله من عمى البصيرة ،

وقد اشتهر في نظم البوصيري قوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم

وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات وأعظم الاضطرار لغير الله ، فناقضوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة ، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة ، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي – صلى الله عليه وسلم – وتعظيمه ، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه

وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون أفرطوا في تعظيمه بها نهاهم عنه أشد النهي ، وفرطوا في متابعته فلم يعبأوا بأقواله وأفعاله ، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له ، وانما يحصل تعظيم الرسول – صلى الله عليه وسلم – بتعظيم أمره ونهيه ، والاهتداء بهديه واتباع سنته ، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونصرته ، وموالاة من عمل به ، ومعاداة من خالفه ، فعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علما وعملا ، وارتكبوا ما نهى عنه ورسوله فالله المستعان (٢٤٣)

(٢٤٣) فتح المجيد / عبد الرحمن حسن آل الشيخ – ص ٢١٢.

أن محبة النبى – صلى الله عليه وسلم – وتعظيمه لا يكون بالغلو فى مدحه ، وانما بطاعة أمره فى كل شئ، والاهتداء بهديه والتأسى به فهو القدوة الحسنة والمثل الأعلى كما قال ربنا :

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً }

(سورة الأحزاب/ ٢١)

فهرس المحتويات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	المقدمة	٢
٢	المبحث الأول : الانحراف عن فهم كلمة التوحيد	٨
٣	المبحث الثانى : القصور فى فهم العبادة	١١
٤	المبحث الثالث : القصور فى مفهوم الإيمان	٥٠
٥	المبحث الرابع : اختزال الدين فى معنى الديانة	٧٤
٦	المبحث الخامس : القصور والخطأ فى مفهوم التوكل	٩٦
٧	المبحث السادس : القصور والخطأ فى مفهوم التوسل	١٢٤
٨	المبحث السابع : القصور والخطأ فى مفهوم القضاء والقدر	١٧٢
٩	المبحث الثامن : الإنحراف عن مفهوم محبة النبى – صلى الله عليه وسلم –	٢٢١